ردود القرآن

على

ذوي الجحود والإنكار

(بحث محكّم)

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

أحمد بن أحمد شرشال الجزائري

أستاذ القرآن الكريم بكلية الشريعة

جامعة الكويت

من منشورات دار الحرمين بالقاهرة

ردود القرآن
على
ذوي الجحود والإنكار

(بحث محكّم)

تأليف
فضيلة الشيخ الدكتور
أحمد بن أحمد شرشال الجزائري
أستاذ القرآن الكريم بكلية الشريعة
جامعة الكويت

دار الحرمين
بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للدار

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع : 2004/3892

I.S.B.N. : 977-310-173-8

الناشر

دار الحرمين للطباعة

الإدارة : 72ش مصر والسودان حدائق القبة

ت: 8420392 محمول : 0123802856

الفرع الجديد : 5 درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

ت : 5145359 محمول : 0105473568

المطابع : ش 112 - منشية السد العالي - جسر السويس

محمول : 0101009352 /ف : 2979735

كلمة الناشر

بسم اللَّه ، والحمد للَّه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المُشَرَّف بالشفاعة ، المخصوص ببقاء شريعته إلى قيام الساعة ، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار وأتباعه الأخيار صلاة باقية ما تعاقب الليل والنهار .

وبعد :- فإن من دواعي الشرف والسرور أن تكون **دار الحرمين** أداة نشرٍ للنافعِ من العلوم وتراث الأمة المصون ، وإننا في هذا المقام إذ نشكر اللَّه تعالى ونشكر القراء الكرام أن أولونا ثقتهم باقتنائهم مطبوعات **الدار** ؛ فإن هذا لمما يزيدنا تمسُّكًا بالخط الذي انتهجناه من تيسير اقتناء المطبوعات النافعة بأسعار مخفضةٍ علاوة على حسن الإخراج ودقة المراجعة وجودة الطباعة ، وفوق هذا كله - وهو الأهم - عرض مطبوعات **الدار** قبل طبعها على المختصين والمؤهلين ممن يحسن النظر ليكون القارئ في مأمنٍ من خطإٍ لسنا نحن صانعوه ، فكانت منشوراتنا - ولله وحده الحمد والمنة - بديعة الإتقان صحيحة الأركان سليمةً من لفظة « لو كان » ، فالحمد للَّه الذي جعلنا عن تراث هذه الأمة ذابين وعلى كتب أهل العلم محافظين ، واللَّه ولي التوفيق .

دار الحرمين

ردود القرآن
على
ذوي الجحود والإنكار

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد للّه وحده ، والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم واقتفى آثارهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فإني لا أزال - بعون الله وتوفيقه - أواصل الحديث عن بعض الجوانب المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه ضمن :

سلسلة الدراسات القرآنية[١] ؛

فالقرآن معينه لا ينضب ، ولا يخلق على كثرة الرّد ، ولا تنقضي عجائبه .

• **وفي هذه المرة ؛ أبين بحول الله وقوته** : علمًا جليلًا من بين علوم كثيرة حواها كتاب الله عز وجل ، ولم يفطن إليه كثير من الناس سوى ما أشار إليه الإمام عبد الحميد بن باديس ، **وأعني به** : «ردود القرآن

(١) «**مجلة المرابطون**» العدد الثاني والثالث . مجلة علمية يصدرها : «**معهد العلوم الإسلامية والعربية**» بموريتانيا .

على ذوي الجحود والإنكار» ، فقد حفل كتاب الله تعالى بهذا النوع من علوم القرآن .

ولم يترك القرآن تلك الشبهات والاعتراضات والاقتراحات والطعون التي أثارها المنكرون والجاحدون بدون جواب ؛ بل أنزل الله تعالى آيات بينات لتفنيدها ودحضها بالأدلة والبراهين المنوعة وإزالة آثارها من نفوس المؤمنين ، ولقنهم الإجابة الشافية لشبه المعاندين من المشركين واليهود والنصارى .

◎ **وقد سمَّيت هذا البحث بعنوان :**

«ردود القرآن على ذوي الجحود والإنكار»

والله أسأل : العون والتوفيق والرشاد .

○ أسباب اختياري لهذا البحث :

وسبب اختياري لهذا النوع من علوم القرآن : رغبتي وشغفي بالقرآن وعلومه ، ومحاولة التفقه فيه ؛ بالتأمل والتدبر ، وقد خلت كتب علوم القرآن من هذا اللون .

فلم يذكره جلال الدين السيوطي (ت : 911هـ) ضمن الأنواع التي

ذكرها في كتابه : «**الإتقان في علوم القرآن**» ؛ حيث ذكر ثمانين علمًا ، ولم يكن من بينها ، كما لم يذكره في كتابه : «**التحبير في علم التفسير**» ؛ حيث ذكر أكثر من مائة علم .

كما لم يلتفت إليه السابقون عليه : كالإمام بدر الدين الزركشي (ت : 794هـ) في كتابه : «**البرهان في علوم القرآن**» .

كما لم يذكره جلال الدين البلقيني في كتابه : «**مواقع العلوم من مواقع النجوم**»[١] .

○ **ومن الأسباب التي حملتني على متابعة هذا البحث في كتاب الله** : هو أن بعض الناس أقحم ردود القرآن وبيانه ومناقشاته في : **باب الجدل** ؛ ثم لما رأى تشابهًا بين هذا الجدل القرآني والجدل المنطقي للمتكلمين وغيرهم ؛ راح يثبت وينفي ما يراه مناسبًا للجدل القرآني ، وينزهه عن قواعد المتكلمين وقياساتهم[٢] .

ومن ثمّ ؛ قَوِيَ عزمي وحزمي على التأمل في كتاب الله ؛ لبحث

---

(١) **انظر** : «**التحبير في علم التفسير**» للسيوطي ، و«**البرهان في علوم القرآن**» للزركشي .

(٢) «**مناهج الجدل في القرآن الكريم**» د. زاهر الألمعي ، و«**استخراج الجدل من القرآن الكريم**» لناصح الدين .

هذا الموضوع ، أن القرآن كتاب هداية وإرشادًا وتوجيهًا ، وما جاء فيه من ردود ومناقشات للمعاندين والمنكرين هو نوع من أنواع البيان القرآني فحسب ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، وإذا وجد فيه ما يفهم منه الجدل ، فذلك غير مقصود منه جدل المناطقة والمتكلمين ، كالآيات التي جاءت موزونة على نمط الشعر ، وكالآيات التي جاءت مسجوعة ، **ومع هذا** ؛ لا يقال بسبب وجود هذا أو ذاك : إن القرآن من قبيل الشعر أو من قبيل السجع ، فكذلك الآيات التي جاءت فيها براهين وأدلة ، ووافقت مناهج الجدل ، فإننا لا نسميه الجدل القرآني ، وإنما هو بيان وتفسير وردود ؛ **لأن الجدل** : يقوم على المعاندة والمخاصمة والمنازعة والمغالبة[2] ، ولا شك أن هناك حالات تستدعي ذلك ، ولكن ستظل هذه الأحوال النادرة مندرجة تحت البيان القرآني ، وهو أوسع مدلولًا من الجدل ، وأعمّ من جدل المتكلمين .

○ **فأدلة القرآن وردوده** ؛ يفهمها عامة الناس وينتفعون بها ، ولا يكلفون أنفسهم تدقيق الفكر وتحقيق النظر ، وإن النبي ﷺ والصحابة من بعده بأجمعهم ما سلكوا مناهج الجدل في الدعوة والإرشاد

(١) [الآية : ١٣٨ : آل عمران] . (٢) «**مفردات الراغب**» الإصفهاني (١٠١) .

والتوجيه .

قال رشيد رضا : «الجدل استعمل في لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة ، وهو محمود ؛ إن كان للوقوف على الحق ، وإلا فمذموم وقد وردت عدة أحاديث وآثار في ذم الجدل والنهي عنه ، منها : «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[1] .

○ **ردود القرآن وبيانه** تختلف عن جدل المتكلمين في الأسلوب والعرض وتباين سائر الأشكال المنطقية والطرق الجدلية المعقدة ، فحجج الله وبراهينه واضحة جلية يفهمها المخاطب ، ولا تحتاج إلى كد الذهن وإعمال الفكر ؛ ولذلك : لم يأمر الله بالجدل إلا وهو مقيد بالأحسن ﴿ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ولا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3] .

إن القرآن سلك في تقرير عقيدة التوحيد على طرق تصريف الآيات وتفصيلها ، وضرب الأمثال ، وعلى البيان بمختلف أنواعه . قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[4] وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا

(١) **انظر** : «**المنار**» (٣/٢٢٦) ، (٩٦/١٢) ، «**شرح الطحاوية**» (٢٧/٢) .
(٢) [الآية : ١٢٥ : النحل] .
(٣) [الآية : ٤٦ : العنكبوت] .
(٤) [الآية : ٦٥ : الأنعام] .

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[١] .

قال الألوسي : «أي : نحولها من نوع إلى آخر من أنواع الكلام ، تقريرًا للمعنى ، وتقريبًا إلى الفهم ؛ لكي يعلموا جلية الأمر ، فيرجعوا عما هم عليه»[٢] .

ولقوله تعالى : ﴿ ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[٣] .

أهمية هذا الموضوع في القرآن الكريم :

يبدو لي أن أهمية هذا العلم أكثر من أهمية بعض العلوم التي حواها كتاب : «**الإتقان**» للسيوطي ، وكتاب «**البرهان**» للزركشي ، وغيرهما ، ولو نبه جلال الدين السيوطي لهذا وفطن له ؛ لجعله على رأس هذه العلوم ، في الوقت الذي نراه أدخل أنواعًا في علوم القرآن صلتها بالقرآن ضعيفة . مثل النوع السادس وهو الأرضي والسمائي[٤] .

وصلة هذا النوع بالقرآن كصلة الفرع بالأصل ، بل إن علاقته بالقرآن كعلاقة الجزء بالكل ، وقد أخذ حَيِّزًا كبيرًا من كتاب الله عزّ وجلّ .

---

(١) [الآية : ٩٨ : الأنعام] .

(٢) «**روح المعاني**» (٥/٢٦٤) .

(٣) [الآية : ٣٣ : الفرقان] .

(٤) انظر : «**الإتقان**» (١/٤٩) .

وقد نص القرآن على هذا النوع من البيان في قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

فهذا النوع ؛ من ردود القرآن قد استقل ببيانه القرآن قبل أن يبينه النبي ﷺ ، ولم يكله إلى أحد ، فمعرفة هذا الباب أكيدة .

قال الشيخ عبد الحميد بن باديس : «وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن ، يتحتم على رجال الدعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة»[2] .

إن القرآن ؛ تولى الردّ على مفتريات ذوي الجحود والإنكار ، وأجاب عن اعتراضات المشركين واقتراحاتهم ، وردود القرآن أبلغ الردود وأصدقها وأحكمها ، لا يتطرق إليها الخلل والشك ، وقد تضمنت هذه الردود حججًا عقلية ينقاد لها عقل المخاطب ، سواء أكان من المؤمنين بهذا القرآن أم كان من غيرهم ، **وهي** - على وجازتها وسهولتها ووضوحها تفحم الخصم العنيد ، وتلجم المكابر العنيد .

○ **ثم إن الشبهات** التي أثارها المشركون ويثيرها أعداء الإسلام من وقت نزول القرآن إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

---

(١) [الآية : ١٣٨ : آل عمران] .

(٢) «**تفسير ابن باديس**» (٢٤٤) .

هي في جملتها متشابهة ؛ لا تخرج عن شبه السالفين ومنكراتهم ؛ لأن المكذبين والجاحدين في كل زمان ومكان يتشابهون في الطباع كما بيَّن القرآن الكريم : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(١) . وقال جل وعلا : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾(٢) ، وقال جل وعلا : ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴾(٣) وكذلك يفعل هؤلاء الجاحدون والمنكرون فعل آبائهم كما بين القرآن الكريم : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(٤) ، وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(٥) .

والقرآن لم يترك هذه الشبهات والأقاويل والاقتراحات وَإِنَّمَا فندها وأبطلها بالحجة والبرهان ؛ تحقيقًا لوعد الله الصادق ﴿ ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾(٦) .

قال جلال الدين السيوطي : «عن أبي حاتم قال : ﴿ ولا يَأْتُونَكَ

(١) [الآية : ١١٨ : البقرة] .
(٢) [الآية : ٤٣ : فصلت] .
(٣) [الآية : ٨١ : المؤمنون] .
(٤) [الآية : ٣٥ : النحل] .
(٥) [الآية : ٢٣ : الزخرف] .
(٦) [الآية : ٣٣ : الفرقان] .

بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[١] .

◎ فيجب علينا عند ورود أي شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى آي الذكر الحكيم ، فسنجد الرّد الوافي والبيان الكاشف .

قال الشيخ عبد الحميد بن باديس : «ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلا وفي القرآن العظيم ردّها بهذا الوعد الصادق»[٢] .

يقصد بالوعد الصادق قوله تعالى : ﴿ ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

إذا أخلصنا القصد وأحسنّا النظر في كتاب الله تدبرًا وعملًا : نجد الردود الوافية والحجج الواضحة لرد كل شبهة وإزالة كل باطل .

«إذا تتبعت آيات القرآن : وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم ، ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف ، في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه»[٣] .

○ وقد سجل القرآن الكريم عددًا وفيرًا من الأحداث والوقائع والاقتراحات والاعتراضات للمشركين وغيرهم من اليهود والنصارى ،

---

(١) «**الإتقان في علوم القرآن**» (٨٩/١) .

(٢) «**تفسير عبد الحميد بن باديس**» (٢٤٤) .

(٣) المصدر نفسه

ورد عليها وأبطلها ، وجاء بالبيان الشافي ، والمتأمّل في كتاب الله يجد أن هذه الأباطيل تنوعت واختلفت ؛ فإن المشركين جاءوا بكلمات في حق الله تعالى وجاءوا بكلمات في حق ملائكته ، وجاءوا بكلمات في حق النبي ﷺ ورسالته ، وغير ذلك من الضلال المبين .

ولسوف - بإذن الله وتوفيقه - أتتبع هذه المنكرات والشبهات كما سجلها القرآن ، وأتتبع هذه الردود والبراهين كما وضحها القرآن وَبَيَّنَهَا .

بيان منهجي في هذا البحث

○ **ولبيان كل هذا** ؛ سيتناول بحثي لتتبع ردود القرآن الكريم على المنكرين والجاحدين المباحث الآتية :

1. ردود القرآن في قضية التوحيد .
2. ردود القرآن في قضية الملائكة .
3. ردود القرآن في النبوة والرسالة ؛ ويندرج تحتها عدة مباحث .
4. ردود القرآن في القضاء والقدر .
5. ردود القرآن على المنكرين لليوم الآخر .
6. خاتمة البحث ونتائجه .
7. فهرس المصادر والمراجع

ردود القرآن على ما جاءوا به في حق الله تعالى :

◎ **أبدأ بأعظم حدث** سجله القرآن للمشركين وغيرهم ، وحفل بالردّ عليه بجميع الوجوه ؛ **وهو** : **إثبات توحيده** عزّ وجلّ وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما نسبه إليه المشركون والجاحدون .

وأول الردود ؛ التي أخذت حيّزًا كبيرًا في كتاب الله : **تثبت إفراد الله بالعبادة** ، وتنزيهه عما لا يليق به جل وعلا .

قال الشيخ الحافظ الحكَمي : «والقرآن كله من أوله إلى آخره : في تقرير التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم» .

وقال ابن القيم : «وغالب سور القرآن ؛ متضمنة لأنواع التوحيد ، بل كل سورة في القرآن»[(١)] .

○ **وأعظم كلمة قالها المشركون** في حق الله تعالى : أنهم نسبوا إليه **الولد** ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

---

(١) «**معارج القبول**» (٢٥/١) ، و«**شرح الطحاوي**» (٤٢) .

وقد اشترك في هذه الفرية . وهذا البهتان : اليهود والنصارى والمشركون ، فقد حكى القرآن عن هؤلاء بعض الأقوال الباطلة وأجاب عنها وفندها ، فقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾[1] ، وقال أيضًا : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾[2] ، ومثلها في «سورة الأنبياء»[3] .

والذين قالوا ذلك هم المشركون واليهود والنصارى :

فقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا : ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ .

وحكى عن النصارى أنهم قالوا : ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ .

وحكى عن المشركين أنهم قالوا : «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ» .

فذكر الله مفتريات اليهود والنصارى ، وجمعهم في هذه الآية : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾[4] .

وذكر مفتريات المشركين في هذه الآية : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[5] .

---

(١) [الآية : ١١٦ : البقرة] .
(٢) [الآية : ٨٨ : مريم] .
(٣) [الآية : ٢٦ : الأنبياء] .
(٤) [الآية : ٣٠ : التوبة] .
(٥) [الآية : ١٠٠ : الأنعام] .

وقوله تعالى : ﴿ ويَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ ولَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[1] .

○ وقد جاءت أجوبة القرآن تترى عن هذه الفرية ، وتنوعت أساليب دحضها وردها .

وقد بين القرآن أوّلًا عظم هذه الكلمة وشدتها وأثرها على الكون ، فقال : ﴿ ويُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ ولَدًا * مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ولا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إن يَقُولُونَ إلَّا كَذِبًا ﴾[2] .

فأَهَمّ وظائف هذا القرآن : إنذار هؤلاء الذين تجرأوا على الله بهذا الباطل ، فنفت الآية عنهم وعن أسلافهم الذين يقلدونهم : **العلم** ، عظمت هذه الكلمة التي تخرج من أفواههم ، وقد صوّر القرآن عظم ما نطقوا به من قبح ، وأثر ذلك على السموات والأرض والجبال :

فقال جل شأنه : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ ولَدًا * ومَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ ولَدًا * إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[3] .

---

(١) [الآية : ٥٧ : النحل] .

(٢) [الآية : ٥ : الكهف] .

(٣) [الآية : ٨٩ : مريم] .

لقد جاءوا بقولهم هذا بأمر منكر عظيم ، تكاد السموات تتفطر من هوله وتتصدع الأرض من عظمه ، وتسقط الجبال استعظامًا لهذه الكلمة التي تهدم التوحيد .

وكل من في السموات والأرض ما هو إلا عبد لله مقر له بالعبودية : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾[1] .

قال ابن عباس : «إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت أن تزول منه لعظمة الله»[2] .

أقول : ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ ومَن فِيهِنَّ وإن مِّن شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[3] .

قال الحافظ ابن كثير : «ليس لها - الكلمة - مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم»[4] .

○ لما بين القرآن في ردوده عظم هذا المنكر وأثره على الكون ،

---

(١) [الآية : ٤٠ : الإسراء] .

(٢) «**تفسير ابن كثير**» (١٤٦/٣) ، و«**البحر المحيط**» (٢٠٦/٦) .

(٣) [الآية : ٤٤ : الإسراء] .

(٤) «**تفسير ابن كثير**» (٧٦/٣) .

جاءت الردود تترى بمختلف الأساليب ؛ لتسقط هذا الزعم ، وتبني معالم التوحيد في نفوس الناس ، وقد اتخذت أنماطًا مختلفة ، فتارة بالنفي القاطع ، وأخرى بالتنزيه ، وطورًا بنفي الشريك ونفي الصاحبة عنه سبحانه وتعالى .

والآيات التي تضمنت الرد على هؤلاء المنكرين والجاحدين كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾[1] .

في هذه الآية : إضراب عن مقالتهم ، وشروع في الاستدلال على بطلانها ، فالسموات والأرض ومن فيهن مملوك لله ، يتصرف فيها كيف يشاء ، وكل ما فيهن مطيع لله مسخر منقاد لله رب العالمين ، وليس الأمر كما زعموا ، تنزه وتقدس .

قال ابن كثير : «اشتملت هذه الآية على الرد على النصارى وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم : إنّ لله ولدًا ؛ **سبحانه وتعالى** ، وليس الأمر كما زعموا ، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف

(١) [الآية : ١١٧ : البقرة] .

فيهم ، **وهو** : خالقهم ، ورازقهم ، ومقدرهم ، ومسخرهم ، ومسيرهم ، ومصرفهم - كما يشاء ، والجميع عبيد له وملك له»[1] .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[2] .

○ ثم يتابع القرآن ردوده عن مقالاتهم السخيفة ؛ فيقول : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3] . فهو منشئ السموات والأرض ومبدعها ومخترعها على غير مثال سابق .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[4] .

تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، لأنه هو الغني بذاته عن الولد وعن كل شيء ، وهو المالك لجميع الكائنات ما عندهم دليل ولا شبهة

---

(١) «**تفسير ابن كثير**» (١/١٦٥) .

(٢) [الآية : ٤١ : النور] .

(٣) [الآية : ١٠١ : الأنعام] .

(٤) [الآية : ٦٨ : يونس] .

دليل على ما زعموه[1] .

فقد حفلت الآيات البينات بالرد القاطع على هذا المنكر العظيم وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما يقولون .

○ **واقتصر على بعض هذه الردود** ؛ لكثرتها :

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾[3] .

وقال : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[4] .

وقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[6] .

هذا خطاب للنبي ﷺ يلقنه الرّد على هذا الافتراء ؛ **قل لهؤلاء**

---

(١) انظر : «**تفسير أبي السعود**» (١٦٣/٤) .

(٢) [الآية : ٣٥ : مريم] .

(٣) [الآية : ٩٢ : مريم] .

(٤) [الآية : ١١١ : الإسراء] .

(٥) [الآية : ٢٦ : الأنبياء] .

(٦) [الآية : ٨٢ : الزخرف] .

المشركين : لو فرض أن لله ولدًا لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد ، ولكنه جل وعلا منزه عن ذلك .

قال القرطبي : «وهذا كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ؛ وهذه مبالغة في الاستبعاد ، وترقيق في الكلام»(١) .

أقول : وهذا التفسير من القرطبي يشهد لصحته قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾(٢) ، على أحد الوجوه كما سيأتي .

ولو أراد الله – سبحانه وتعالى – أن يتخذ ولدًا على سبيل الفرض والتقدير لاختار من خلقه ما يريده هو ، لا ما يريده الضالون ، لكنه سبحانه وتعالى لم يختر أحدًا ليكون ولدًا له ؛ لأنه الغني .

وإلى هذا المعنى أشار الحق فقال : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(٣) .

○ ومن ردود القرآن القاطعة والبراهين الساطعة على إثبات توحيد الله

---

(١) «**الجامع** القرطبي (١٦/١١٩) .

(٢) [الآية : ٤٢ : الإسراء] .

(٣) [الآية : ٤ : الزمر] .

عزّ وجل وتنزيهه عما يقول الظالمون ؛ قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ ومَن فِيهِنَّ وإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1] .

قال الشيخ الشنقيطي : «لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا - أي : الآلهة المزعومة - **أي** : لطلبوا إلى ذي العرش **أي** : إلى الله سبيلا أي إلى مغالبته وإزالة ملكه»[2] .

ثم ساق سبحانه وتعالى دليلًا عقليًا مستمدًا من واقع هذا الكون فقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] .

أي : لو كان في السموات آلهة أخرى سوى الله - سبحانه - تُدَبِّر أمرهما **لفسدتا** ، ولخرجتا عن نظامهما البديع الذي لا خلل فيه ولا اضطراب ، وإن تعدد الآلهة - كما يزعمون - يلزمه التنازع والتغالب ، فيختل النظام ، ويضطرب الأمر ويعم الفساد .

---

(١) [الآية : ٤٤ : الإسراء] .

(٢) «أضواء البيان» (٤٣٣/٣) ، و«روح المعاني» (١١٨/٩) .

(٣) [الآية : ٢٢ : الأنبياء] .

ولو كان آمر السموات والأرض ومدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما **لفسدتا** .

وقد بين القرآن فساد القول بتعدد الآلهة فقال : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١) .

لم يتخذ الله ولدًا كما يزعمون ؛ لأنه سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك ، ولم يكن معه إله يشاركه في ألوهيته وربوبيته عزّ وجل .

○ ولو كان الأمر كما يزعمون ؛ لاستقل كل إله بما خلقه وتفرد به عن غيره ، ولحدث بينهم من التحارب والتغالب ما لا يخفى ، ويحدث لهذا الكون الخلل والاضطراب : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(٢) ، ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(٣) .

---

(١) [الآية : ٩٢ : المؤمنون] .
(٢) [الآية : ١٧ : البقرة] .
(٣) [الآية : ٤ : الملك] .

قال أبو حيان : «ولو كان معه شريك في الخلق ، لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به ، وتميز كل واحد عن ملك الآخر وغلب بعضهم بعضًا»[١] .

وقال محمد جمال الدين القاسمي : «المتخالفان بالذات يجب أن يتخالفا في الأفعال ، فيذهب كل بما خلقه ويستبد به ، ويظهر بينهم التحارب والتغالب ، فيفسد نظام الكون»[٢] .

ثم ناقش القرآن أهل الكتاب ، ووجه النداء إليهم ، ليحذرهم من المقالات في شأن عيسى ، وطلب منهم الكف عن الشرك ، وأرشدهم إلى الاعتقاد الصحيح في نبي الله عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله .

ثم أثبت القرآن وحدانية الله بأقوى طريق ، فقال تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ ورُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ واحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ ولَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وكَفَى بِاللَّهِ وكِيلًا * لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ولا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ

(١) «**البحر المحيط**» (٦/٣٨٦) .

(٢) «**محاسن التأويل**» (٧/٣٠٠) .

وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[1] .

ثم بعد هذا النهي عن الغلو في عيسى عليه السلام ، وبيان القول الحق فيه ، ناقشهم القرآن وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد على هؤلاء الضلال ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[2] .

والمعنى : من ذا الذي يملك من أمر الله وإرادته شيئًا يَدْفَع به الهلاك عن المسيح وعن أمه وعن سائر أهل الأرض إن أراد أن يهلكهم ، احتج سبحانه وتعالى على فساد ما ذهب إليه النصارى بإرادته الهلاك ، فلا يستطيع أحد أن يرد ذلك .

وقد أفاض القرآن في رد مزاعم النصارى فقال :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ

---

(١) [الآية : ١٧٢ : النساء] .

(٢) [الآية : ١٧ : المائدة] .

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾(1) .

وقال أيضًا في تفنيد مزاعمهم : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(2) .

إن آدم ما كان لهَ أب ولا أم ، ولا يلزم أن يكون ابنًا لله تعالى ، فكذلك القول في عيسى ، إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من تراب من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من آدم ، فالأولى أن يجوز أن يخلق عيسى من مريم ، وهذا أقرب إلى العقل(3) .

فالآية الكريمة ؛ ترد ردًّا محكمًا يهدم زعم كل من قال بألوهية المسيح أو اعتبره ابن الله ؛ **لأنه** إذا كان الله - تعالى - قادرًا على أن يخلق إنسانًا بدون أب ولا أم ، فأولى ثم أولى أن يكون قادرًا على خلق إنسان من غير أب فقط ومن أم هي مريم التي تولاها سبحانه برعايته وصيانته لها من كل سوء .

---

(1) [الآية : ٧٢ - ٧٥ : المائدة] .
(2) [الآية : ٥٩ : آل عمران] .
(3) **انظر** : «**تفسير الرازي**» (٨٤/٤) .

وجود آدم من غير أب ولا أم : أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغريب بالأغرب ؛ ليكون أقطع للخصم ، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه[١] .

◎ **وقد تعلق النصارى بقوله تعالى** : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾[٢] .

وقد بين القرآن ؛ أنّ من كان في قلبه انحراف وميل عن الصراط السوي يتبع المتشابه يبتغي به الفتنة ويريد به التأويل ، وكان الواجب **أنْ** يردوا الآيات التي خفيت دلالتها عنهم ، والتبس معناها عليهم **إلى** الآيات المحكمات التي وصفها الله بقوله : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ **أُمُّ** الْكِتَابِ ﴾[٣] : **أي** : أصله الذي يجب أن يرد غيره إليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[٦] . **وغيرها من الآيات المحكمات .**

---

(١) كلام الزمخشري في : «**الكشاف**» (١/٣٦٧) . (٢) [الآية : ١٧١ : النساء] .
(٣) [الآية : ٧ : آل عمران] . (٤) [الآية : ٥٩ : الزخرف] .
(٥) [الآية : ٧٢ : النساء] . (٦) [الآية : ٥٩ : آل عمران] .

ردود القرآن على مزاعم كفار قريش في حق الملائكة :

◌ إن القرآن الكريم قد سجل عددًا وفيرًا من مفتريات كفار قريش في حق الله وحق ملائكته ، وأجاب عنها بأسلوب واقعي ، حيث ساق لهم الحقائق بأسلوب يغلب عليه طابع الموازنة والمقارنة والاستشهاد بالواقع ، وضرب لهم مثلًا من أنفسهم ، فقال جلا وعلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى ﴾(١) ، وقال أيضا : ﴿ ويَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ ولَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾(٢) ، وقال : ﴿ وجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾(٣) ، وقال : ﴿ وجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾(٤) ، وقال : ﴿ وخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٥) ، ومن مفترياتهم ما حكاه القرآن في قوله : ﴿ وجَعَلُوا بَيْنَهُ وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا ﴾(٦) .

هذه الآيات الكريمة وغيرها ؛ تحكي ما كان شائعًا في بعض قبائل

---

(١) [الآية : ٢٧ : النجم] .
(٢) [الآية : ٥٧ : النحل] .
(٣) [الآية : ١٥ : الزخرف] .
(٤) [الآية : ١٩ : الزخرف] .
(٥) [الآية : ١٠٠ : الأنعام] .
(٦) [الآية : ١٥٨ : الصافات]

العرب من أنهم كانوا يزعمون : أن الملائكة بنات الله – سبحانه – ، وكانت قبيلة خزاعة وقبيلة كنانة تقولان بذلك في الجاهلية ، ويزعمون أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى[1] .

وكانت طوائف من العرب تزعم ذلك – كجهينة ، وبني سلمة ، وخزاعة ، وبني مليح[2] ، فالقرآن الكريم صور ما كان عليه الحال في الجاهلية من فساد في الاعتقاد ، ثم كرّ على كل هذه التَّقَوُّلات ، وناقش أقوالهم وأبطلها .

وخلال مناقشات القرآن وردوده على هذه المزاعم ؛ بَيَّن أنّ ما يقولونه في حق الله جل وعلا وملائكته : منكر عظيم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾[3] إنكم بنسبتكم البنات إلى الله – سبحانه وتعالى – لَتَقُولُون منكرًا من القول وزورًا .

ثم توالت الردود والإجابات من القرآن عن هذا الاعتقاد الفاسد ؛ تارة : بنفي العلم عنهم ، وتارة : أخرى بتنزيه الله تعالى ، وثالثة : بمطالبتهم بالبرهان والدليل على ما يقولون .

---

(١) «**الجامع القرطبي**» (٥/١٠٤) ، (٦/١٩٠) ، (٨/١٢٠) .
(٢) «**المحرر الوجيز**» لابن عطية (٢/٣٢٩) ، و«**تفسير أبي السعود**» (٩/٢٠٧) .
(٣) [الآية : ٤٠ : الإسراء] .

قال جلا وعلا : ﴿ ومَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا ﴾(١) ، وقال منكرًا عليهم : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ واتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكم .

والمعنى : أفخصكم ربكم بالذكور واختار لنفسه على حد زعمكم البنات – سبحانه – ، **ومقصود الآية** : نفي ما زعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه ، ولم يخصكم ربكم بالبنين ، ولم يتخذ من الملائكة إناثًا : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ ولَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾(٣) .

وتوالى الإنكار عليهم في قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾(٤) .

والحال : أن هذه القسمة فيها **جور** ؛ لأنكم تأنفون من البنات التي نسبتموهن لله : ﴿ ويَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ ولَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وجْهُهُ مُسْوَدًّا وهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِن

---

(١) [الآية : ٢٨ : النجم] .
(٢) [الآية : ٤٠ : الإسراء] .
(٣) [الآية : ٤ : الزمر] .
(٤) [الآية : ٢١ : النجم] .

سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] .

فذكرت الآية حالهم عندما يبشرون بولادة أنثى ، وبينت عادتهم الجاهلية إذا أخبر أحد هؤلاء الذين يجعلون لله البنات بولادة أنثى دون الذكر : صار وجهه مسودًّا كئيبًا حزينًا يختفي من الناس خجلًا وحياء ، ثم هو بعد ذلك إما أن يمسكها على هوان ومذلة ، وإما أن يدفنها حية : ﴿ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ : بئس الحكم حكمهم ، وبئس الفعل فعلهم ، حيث نسبوا البنات لله تعالى[2] .

ثم بين القرآن كذبهم وتناقضهم مع أنفسهم ، حيث اعترفوا بأنه تعالى خالق السموات والأرض ثم وصفوه بصفات المخلوقين[3] .

وهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل ، لم يكونوا كذلك ، وليس عندهم علم بذلك ولا برهان ، وليس عندهم كتاب يشهد لصحة دعواهم ، فهم به مستمسكون ، ولم يكن شيء من هذا أو ذلك .

---

(١) [الآية : ٥٩ : النحل] . (٢) **انظر** : «**المحرر الوجيز**» ابن عطية (٣/٤٠١) .
(٣) «**روح المعاني**» للألوسي (١٤/١٠٦) .

وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾(١) .

قال الألوسي : «أَحَضَرُوا خلق الله تعالى إياهم فشهدوهم إناثًا حتى يحكموا بأنوثتهم ؟ فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة»(٢) .

أقول : نفى عنهم طرق العلم الثلاثة ، ليس لهم علم لا من جهة **النقل** ، ولا من جهة **العقل** ولا من جهة **المشاهدة** ؛ فبان كذبهم وسقط مُدَّعاهم : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾(٣) .

أنكر الله عليهم وردّ دعواهم أنهم نسبوا له - سبحانه - ما لا يليق به

(١) [الآية : ٢١ : الزخرف] .

(٢) «روح المعاني» (١١٠/١٤) ، «زاد المسير» (١١١/٣) ، (٣١٣/٧) .

(٣) [الآية : ٥١ : الكهف] .

من الولد ، ومع ذلك نسبوا أنقص الولدين وأضعفهما - ولذلك ؛ ينشأ في الحلية ، أي : الزينة ؛ لِيَجْبُرَ نقصه الخلقي الطبيعي بالتجميل بالحلي - وهو الأنثى ، بخلاف الرجل ، فإن كمال ذكورته وقوته : يغنيه عن الحلي ؛ ولذلك ردّ هذه القسمة الظالمة الجائرة ، وغير العادلة ؛ لأن الأنثى أنقص من الذكر قوة وتحمّلا ، فجعلوا هذا النصيب الناقص لله عزّ وجلّ ، وجعلوا الكامل لأنفسهم ، كما قالت العرب في أمثالها : «أحشفا وسوء كيله» .

○ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم - أن يستفتيهم في شأن الملائكة توبيخًا وتأنيبًا ، وأن يرد على كذبهم ردًّا يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١) .

---

(١) [الآية : ١٤٩ - ١٥٩ : الصافات] . **وانظر** : «تفسير ابن كثير» (٤/٢٥) .

فالقرآن ؛ حاصرهم وضيق عليهم الخناق في مناقشاته وردوده ، فنفى عنهم المشاهدة ، وأثبت لهم الكذب ، ونفى عنهم البرهان والحجة على زعمهم ، وليس لهم من طرق العلم إلا الإفك والبهتان ، وأثبت القرآن تنزيه الله عما يقولون وعما يفترون سبحانه وتعالى .

○ **ثم بين القرآن وظائف الملائكة** ، وأنهم خلق من مخلوقاته يعبدونه ، فقال جل وعلا : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾(١) .

هكذا يفند القرآن مزاعم القوم ويرد اعتقاداتهم الفاسدة ، ويثبت تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يقولون .

---

(١) [الآية : ٢٨ : الأنبياء] .

ردود القرآن على أهل الجحود والإنكار في القضاء والقدر :

○ ولما أبطل الله دعواهم ، انتقلوا إلى زعم آخر ، وهو : أن شركهم بالله كان بمشيئة الله تعالى وهو راض عن ذلك ، وقد حكى القرآن هذا ثم أبطله فقال : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾[١] .

ومثل هذه الآية : ما جاء في «سورة النحل» : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[٢] .

ومثل الآيتين السابقتين : ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ

---

(٢) [الآية : ١٥٠ : الأنعام] .

(٢) [الآية : ٣٥ : النحل] .

الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾(١) .

هذه شبهة قديمة حديثة ، لأن كثيرًا من المعاندين والجاحدين للرسل موّهوا بها .

وحديثة ؛ لأن بعض الناس في زماننا هذا يتمسكون بما تمسك به **القدماء** ، فتراهم يرتكبون القبائح والمنكرات ، ويعزون ذلك إلى مشيئة الله وقضائه وقدره .

قال رشيد رضا : «سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله تعالى أن لا نشرك به وأن لا يشرك آباؤنا من قبلنا لما أشركنا ولا أشركوا ، ولو شاء الله أن لا نُحَرِّم شيئًا مما حرّمنا من الحرث والأنعام لما حرمنا»(٢) .

إنهم يحيلون الشرك وعبادة غير الله وتحريم ما أحله الله على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله في زعمهم ألا يفعلوا شيئًا من هذا لمنعهم بقدرته

---

(١) [الآية : ٢٤ : الزخرف] .

(٢) «تفسير المنار» (١٧٦/٨) .

التي لا يعجزها شيء .

فاعتذار الكافرين عن كفرهم بما يشبه قول الجبرية مرفوض ، لم يقبله الله تعالى ، وقد ناقشهم القرآن الكريم وردّ قولهم الذي ظاهره حق .

قال القرطبي : «وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل»(١) .

قال تعالى في الردّ عليهم في سورة الأنعام : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾(٢) .

وقال في «سورة النحل» : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(٣) .

أي : مثل ذلك التكذيب الذي صدر من مشركي العرب وأهل مكة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما جاء به من إثبات للتوحيد وإبطال للشرك : كَذَّب الذين من قبلهم رسلهم ، وأعرضوا عن الرسالة التي جاءوا بها فعاقبهم الله ؛ لأن الرسل حذرت وأنذرت من الشرك ، مما يدل على أن كفرهم وشركهم وتحليلهم وتحريمهم كان باختيارهم وإرادتهم ، فمشيئة الله الشرعية لا حجة لهم فيها ، ولو كان فعلهم مُرْضِيًا لله كما يدعون لما أهلكهم الله ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾(٤) .

---

(١) «**الجامع**» للقرطبي (١٦/٦٥) .
(٢) [الآية : ١٤٨ : الأنعام] .
(٣) [الآية : ٣٣ : النحل] .
(٤) «**التحرير والتنوير**» (١٤/١٤٧) .

○ **إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية غير مرادة** ؛ لأن الله نهى الناس عن الكفر على ألسنة رسله .

وأما المشيئة الكونية ؛ وهي تمكين بعض الناس من الكفر ، فلا حجة لهم فيها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ولا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ وإن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[1] ، **ولأن مشيئة الله تعالى من علم الغيب** ، كيف يحتجون بما لا يعلمونه من الغيب ؛ فلذلك قال : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ : هل لديكم علم وبرهان واضح يصح الاحتجاج به فيما قلتم فتظهروه وتبينوه : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ، **أي** : لا حجة لهم على ما يقولون إلا الظن والخيال والاعتقاد الفاسد ، وهم كاذبون في مزاعمهم ؛ **لأن مشيئة الله لا يعلمها أحد سواه** ، ثم أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، فحجتكم ساقطة عن درجة الاعتبار ، ولله الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع ، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ، ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ، ليتم

---

(١) [الآية : ٧ : الزمر] .

التكليف[١] .

ثم أمره الله أن يقول لهم : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ ، **أي** : أحضروا من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله حرّم هذه الأشياء التي تَدَّعُونها[٢] .

○ **ثم واصل القرآن الاحتجاج في إبطال هذه الدعوى** ، فقال : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ .

أي : أأعطيناهم من قبل القرآن كتابًا فيه ما يشهد بصحة أقوالهم ؛ فهم بهذا الكتاب مستمسكون ، **كلا** ؛ إننا لم نعطهم شيئًا ، ثم بيَّن الحق تبارك وتعالى أن ليس لهم في الحقيقة مستند لا من العقل ولا من النقل ، وإنما مستندهم الوحيد التقليد لآبائهم في السفه والجهل فقال : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : «يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم : ﴿ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ . ومضمون دعواهم أنه لو كان تعالى كارهًا لِمَا فعلنا ؛ لأنكره علينا

(١) «**صفوة التفاسير**» (١/٣٩٥) .
(٢) «**تفسير ابن كثير**» (٢/١٩٤) .

بالعقوبة ، وَلَما مكننا منه»[1] .

وقال : «فمشيئته تعالى **الشرعية** منتفية ؛ لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته **الكونية** وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة»[2] .

---

(١) «**تفسير ابن كثير**» (٢/٥٨٩) .

(٢) «**تفسير ابن كثير**» (٤/٥٩٠) .

رد القرآن على مزاعمهم في النبوة والرسالة ونبوة محمد ﷺ ورسالته :

أولاً ما قالوه في حق النبي ﷺ :

إذا تتبعنا في القرآن ما قاله المشركون والمكذبون ؛ نجد ألوانًا من الشبهات والاقتراحات التي أثارها المنكرون والجاحدون حول النبي ﷺ ، وحول رسالته : القرآن .

وقد بلغ بهم الجحود والإنكار ؛ أنهم مثلوا للنبي ﷺ الأمثال ، **فوصفوه** : تارة بأنه مسحور ، وتارة بأنه ساحر ، وتارة أخرى بأنه معلم مجنون ، فتحيروا فيما يصفونه به للناس ، لئلا يعتقدونه نبيًا ، فجعلوا يتطلبون أشبه الأحوال بحاله في خيالهم ، فيلحقونه به ، وسجل القرآن الكريم عليهم الحيرة والتردد والاضطراب ، حيث جعلوا ينتقلون في وصفه ﷺ من صفة إلى صفة ؛ **لعلمهم** : أن ما يصفونه به باطل لا يطابق حال النبي ﷺ كما ذكر الله عنهم : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾(١) .

---

(١) [الآية : ٤٨ : الإسراء] ، [الآية : ٩ : الفرقان] .

وقال جل وعلا : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[1] .

فهم في شأن النبي ﷺ ورسالته في حيرة وتردد واضطراب ، وقد سجل القرآن عليهم ذلك الاضطراب ، فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[2] ، وقال مخاطبًا لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾[3] ، فهم في أمر مريج مختلط ، لا يستقرون على حال ، يقال : مرج الأمر بزنة طرب إذا اختلط وتزعزع وفقد الثبات والاستقرار ، والقول المختلف : هو المتناقض الذي يخالف بعضه بعضًا ، فجميع أقوالهم في النبي ﷺ ورسالته مضطربة متناقضة ، وليست مستقرة ، فقولهم : «**ساحر**» يناقض قولهم : «**مسحور**» ، وقولهم : «**معلم مجنون**» و«**شاعر مجنون**» : جمع بين النقيضين ، فالتعليم والشعر يتنافى مع الجنون ؛ **حقًا** : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ، وكلامهم في النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته يبطل بعضه بعضًا ؛ **حقًا** : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ ، وكان يكفي في إسقاط تقولاتهم أنها متناقضة مضطربة .

---

(١) [الآية : ٨ : الأحقاف] .
(٢) [الآية : ٥ : ق] .
(٣) [الآية : ٨ : الذاريات] .

○ **يمكن تصنيف شبهاتهم واعتراضاتهم على النبوة عمومًا وعلى نبوة محمد ﷺ ورسالته والردود عليها ؛ على النحو التالي :**

أولًا : شبهاتهم على بشرية النبي ﷺ والرد عليها :

وأول دعواهم الباطلة التي فندها القرآن تفنيدًا عجيبًا وأجاب عنها :

قولهم : إن الرسول لا يكون من البشر ، وقد حكاها القرآن في كثير من الآيات ، وهذه الدعوى ليست جديدة في تاريخ الرسل ، بل هي قديمة قدم الرسالات ، وكان كل قوم يستقبلون رسولهم بهذه الكلمة : ﴿ مَا هَذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ، وقد سجل القرآن الكريم هذا الاتفاق الحاصل من جميعهم ، فقال : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾(١) .

فنوح عليه السلام قال له قومه : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾(٢) ، وقالوا له : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾(٣) .

وهود عليه السلام قال له قومه : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا

---

(١) [الآية : ١٠ : إبراهيم] .

(٢) [الآية : ٢٤ : المؤمنون] .

(٣) [الآية : ٢٧ : هود] .

لَخَاسِرُونَ ﴾[(١)] .

وقال الملأ من قوم فرعون **لموسى وهارون** عليهما السلام : ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[(٢)] .

وقال **قوم صالح** عليه السلام لنبيهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[(٣)] ، وقالوا أيضًا : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا واحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وسُعُرٍ ﴾[(٤)] .

وقال **قوم شعيب** لرسولهم : ﴿ ومَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[(٥)] .

وقال **أصحاب القرية** : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[(٦)] ، فجميع الأقوام قالوا لرسلهم : ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾[(٧)] .

وردد المشركون للنبي ﷺ ما قاله أمثالهم لإخوانه المرسلين .

قال تعالى : ﴿ ومَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[(٨)] .

فالمنكرون والجاحدون أنكروا أن يكون الرسول من البشر في الهيئة

---

(١) [الآية: ٣٤ : المؤمنون] .
(٢) [الآية : ٤٧ : المؤمنون] .
(٣) [الآية : ١٥٤ : الشعراء] .
(٤) [الآية : ٢٤ : القمر] .
(٥) [الآية : ١٨٦ : الشعراء] .
(٦) [الآية : ١٥ : يس] .
(٧) [الآية : ٩ : التغابن] .
(٨) [الآية : ٩٤ : الإسراء] .

والصورة : يأكل ويشرب ، ويرون أن الرسول لابد وأن يكون من الملائكة ، وقد سجل القرآن اقتراحاتهم واعتراضاتهم ، وفندها وأبطلها ببيان الحكمة من إرسال الرسول من البشر ، وكان الواجب أن يكون ملكًا ؛ نزلوا عن اقتراحهم هذا ، إلى اقتراح : أن يكون إنسانًا معه ملك ؛ حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ، فقال تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾(١) .

ثانيا : اقتراحهم أن يكون النبي ﷺ ملكًا والرد عليهم :

ومن الآيات التي ذكرت اقتراحهم ، قوله تعالى : ﴿ وقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾(٥) .

فهذه الآيات ونحوها : بينت شبهتهم في عدم الإيمان : أن الرسول الذي يرسله الله إلى الخلق لابد وأن يكون من جنس الملائكة ، لذلك

(١) [الآية : ٧ : الفرقان] .
(٢) [الآية : ٨ : الأنعام] .
(٣) [الآية : ٢١ : الفرقان] .
(٤) [الآية : ٢٤ : المؤمنون] .
(٥) [الآية : ١٤ : فصلت] .

صاروا في حيرة واضطراب من أمرهم ، كيف يصفون شأنه ﷺ ، ورموه بجملة من الأوصاف المزعومة ، وضربوا له الأمثال ، فقالوا - كما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[1] ، ثم انتقلوا من هذا الوصف إلى قولهم : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[2] ، ثم قالوا : ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[3] .

وكل وصف يرونه لا يطابق شأنه ﷺ إلا أضربوا عنه إلى وصف آخر :

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾[4] ؛ لذلك تراهم في بعض الأحيان **يمزجون وصفين في آن واحد** - كما ذكره القرآن عنهم : ﴿ ويَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[5] ، ثم تحيروا واضطربوا ، وقالوا : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[6] .

فأقوالهم فيه متناقضة : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ ، ولا يصح الجمع بين كونه معلمًا ومجنونًا في آن واحد ؛ لأن المجنون لا يكون معلمًا ولا

---

(١) [الآية : ٤ : ص] .
(٢) [الآية : ٤٧ : الإسراء] .
(٣) [الآية : ٣ : الأنبياء] .
(٤) [الآية : ٥ : الأنبياء] .
(٥) [الآية : ٣٦ : والصافات] .
(٦) [الآية : ١٤ : الدخان] .

يتأثر بالتعليم[١] ، وكان يكفي في سقوط مقترحاتهم عن درجة الاعتبار هذا التناقض العجيب ، والتنافر المعيب ، إلا أن القرآن أجاب عن كل هذه الشبهات وأبطلها ، وأزالها ببيانه الساطع وردوده النافذة من وجوه :

الوجه الأول فقال في رده على اقتراح نزول الملائكة : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾[٢] : ما ينزل الله الملائكة إلا تنزيلا متلبسا بالحق ، بالوجه الذي تقتضيه حكمة الله ؛ كأن ينزلهم لإهلاك الظالمين ، أو لتبليغ الوحي إلى رسل الله ، والتي ليس منها ما اقترحه المشركون .

قال ابن عطية : «والظاهر أن معناها كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي رآها الله لعباده لا على اقتراح كافر ولا باختيار معترض»[٣].

وقال في بيان فساد اقتراحهم : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴾[٤] : ولو أنزل الله ملكًا كما اقترح هؤلاء الجاحدون والمنكرون ، وهم على ما هم عليه من الكفر والإنكار لقضي عليهم

---

(١) **انظر** : «**التحرير والتنوير**» (٢٥/٢٩٢) .
(٢) [الآية : ٨ : الحجر] .
(٣) [الآية : ٨ : الحجر] .
(٤) [الآية : ٨ : الأنعام] ، **وانظر** : «**المحرر الوجيز**» (٣/٣٥١) ، و«**البحر المحيط**» (٥/٤٣٥) .

بالإهلاك ، ولا يمهلون ولا يؤخرون ، بل يأخذهم العذاب عاجلًا .

قال ابن عباس : «لو رأوا الملك على صورته لماتوا ، إذ لا يطيقون رؤيته» .

وقال الحسن وقتادة : «لأهلكوا بعذاب الاستئصال ، لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية ، فأظهرت فلم يُؤْمِن أهلكه الله في الحال ، ولا يمهلون ولا يؤخرون»[1] .

أقول : يكون حالهم في هذا الاقتراح كالساعي إلى حتفه ، وإن عدم إجابتهم فيها حياة لهم وإبقاء على أنفسهم .

وقال أبو السعود : «وقيل : إنهم إذا رأوه : يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف»[2] ويكون حينئذ من قبيل إيمان المضطر .

الوجه الثاني في رد اقتراحهم ، ذكره بقوله : ﴿ ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وللَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[3] ، لو جعل الله الرسول من الملائكة - كما اقترحوا - ؛ لكانت الحكمة تقضي أن يجعله في صورة

---

(١) «**الجامع**» للقرطبي (٣٦٢/٦) ، و«**المحرر الوجيز**» (٢٧١/٢) ، و«**تفسير ابن كثير**» (١٢٩/٢) .

(٢) «**تفسير أبي السعود**» (١١٣/٣) ، و«**البحر المحيط**» (٨٣/٤) .

(٣) [الآية : ٩ : الأنعام] .

البشر ؛ ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذي يبلغه عن الله ، ويفهموا عنه ويأنسوا به ، ويكون في موضع الاقتداء والاهتداء .

لو جعل الله الرسول من الملائكة ؛ لكن من الحكمة أن يجعله في صورة بشر ، ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذي يبلغه ، وفي هذه الحالة يقولون لهذا الملك المرسل إليهم في صورة بشر : لست ملكًا ، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها ، **وحينئذ** ؛ يقعون في نفس اللبس والاشتباه ، ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم ، بسبب استبعادهم أن يكون الرسول بشرًا[1] .

لو أنزل الله ملكًا لكان على هيئة البشر ؛ ليمكنهم الانتفاع بالأخذ عنه ؛ ليصح منهم الاقتداء والاهتداء ؛ لأنه يجري عليه ما يجري عليهم ، ويكون سلوكه نموذجًا لما يدعو إليه ، وإن الملائكة جنس آخر : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ؛ ولذلك كان جبريل يأتي للنبي ﷺ في صورة رجل ، وتمثل لمريم بشرًا سويًّا ، وتمثلت الملائكة لإبراهيم ولوط بصورة البشر .

قال سيد قطب : «ولو كان الرسل من غير البشر كما اقترحوا ، لما

(١) **انظر** : «**تفسير ابن كثير**» (١٢٩/٢) ، و«**الجامع**» للقرطبي (٣٩٤/٦) .

كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس ، فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يقتدون بهم ويهتدون ، والرسول الملكي لا يثير في نفوس الناس الرغبة في تقليده ؛ لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه ، والرسول البشري كان يبين شرع الله بقوله وفعله وإقراره ، كل ذلك كان داعيًا وباعثًا لهم على العمل»[1] .

الوجه الثالث لدحض شبهاتهم ورد اقتراحهم أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[2] .

لو ثبت وجود الملائكة في الأرض يمشون على أقدامهم كما يمشي الإنس ، ويعيشون فوقها مستقرين مقيمين ؛ لأرسل الله عليهم ملائكة من جنسهم وبلسانهم ، ليحصل التخاطب والتفاهم ، لأن كل جنس يأنس بجنسه ، والرسول ؛ يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم .

لو كان أهل الأرض ملائكة ؛ لوجب أن يكون رسولهم من

(١) **انظر التفاصيل** في : «**ظلال القرآن**» (٤/٢٣٦٩) .
(٢) [الآية : ٩٥ : الإسراء] .

الملائكة ؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبما أن أهل الأرض من البشر كانت الحكمة تقضي أن يكون رسولهم من البشر(١) .

قال القاسمي : «نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ، ليتفقهوا عنه ، ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته ، حتى لو كانت الأرض مستقرًا لملائكته لكانت رسلهم منهم ، جريًا على قضية الحكمة»(٢) .

لو كان في الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الإنس ساكنين في الأرض مستقرين لنزل الله عليهم ملكًا رسولًا من جنسهم ، ليعلمهم الخير والرشد .

الوجه الرابع بين الله لهم أن اليوم الذي يتحقق لهم فيه رؤية الملائكة كما اقترحوا لن يكون يوم خير عليهم ، بل سيكون يوم بلاء ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾(٣) ، وهو وقت الموت أو وقت القيامة(٤) .

---

(١) «**تفسير الرازي**» (٦١/١١) .

(٢) «**محاسن التأويل**» (٥١٤/٦) ، و«**تفسير ابن كثير**» (٦٨/٣) ، و«**الكشاف**» (٢/ ٦٤٩) .

(٣) [الآية : ٢٢ : الفرقان] .

(٤) «**تفسير ابن كثير**» (٣٢٥/٣) .

ومما يعاضد هذه الردود قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

ما أرسل الله إلى الأمم السابقة إلا رسلًا من البشر ، ليعيشوا حياة البشر ، وليتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم ، ولو كان الرسول من غير البشر - كما اقترحوا - ؛ لما كان هناك أمر القيام بالتكاليف الشرعية ؛ لعدم وجود التناسب بين الرسول الملكي والمرسل إليهم من البشر ؛ لأنه يقدر - بأمر الله - على ما لا يقدرون .

ثالثًا اعتراضهم بأن منصب النبوة والرسالة يتعارض مع الأكل والشرب والزواج والرد على ذلك وبيان الحكمة :

ومن مطاعنهم وشبهاتهم ما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾[٢] .

فقالوا متعجبين ومنكرين : إنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فعيروه بأكل الطعام ؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكًا ، وعيروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة

(١) [الآية : ٧ : الأنبياء] .
(٢) [الآية : ٧ : الفرقان] .

يترفعون عن الأسواق ، وكان عليه الصلاة والسلام يخالطهم في أسواقهم ويغشاهم في مجالسهم ، يأمرهم وينهاهم ، فما له يخالف سيرة الملوك[1] .

الجواب العتيد في رد الخصم العنيد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾[2] .

وقال في رد باطلهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾[3] .

وقال في رده : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[4] .

فهذه الآيات وغيرها : تضمنت الرد القاطع على اعتراض المشركين على بشرية الرسول ، وأنه جل وعلا ما أرسل أحدًا من الرسل إلا وحالهم وشأنهم يأكلون الطعام الذي يأكله غيرهم ، ويمشون في الأسواق كما يمشي غيرهم من الناس ، طلبًا للرزق .

---

(١) **انظر** : «**الجامع**» للقرطبي (١٣/٧) .
(٢) [الآية : ٢٠ : الفرقان] .
(٣) [الآية : ٨ : الأنبياء] .
(٤) [الآية ٣٨ : الرعد] .

وما جعل الرسل السابقين أجسادًا لا تأكل ولا تشرب كالملائكة ، وإنما جعلهم بشرًا يأكلون ويشربون ، ويتزوجون ويتناسلون ، ويعتريهم ما يعتري البشر ، ولكن الله اختارهم وفضلهم لأداء رسالته ، وإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوا من لهم علم بأحوال الرسل السابقين .

قال الألوسي : «فنزلت هذه الآية ردًّا عليهم حيث تضمنت : أن التزوج لا ينافي النبوة ، وأن الجمع بينهما قد وقع في رسل كثيرة قبله ﷺ»[1] .

وقال القاسمي : «إعلام بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز في حقهم يجوز في حقه ﷺ»[2] .

كما نجد القرآن يرد اعتقاد النصارى في عيسى ، فقال : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾[3] .

فإن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها ، وأنه مساو لإخوانه المرسلين وأمه صديقة ، وأنهما يحتاجان للطعام والشراب

---

(١) «**روح المعاني**» (٢٤٢/٨) .

(٢) «**محاسن التأويل**» (٤٢٣/٧) .

(٣) [الآية : ٧٥ : المائدة] .

كما يحتاج سائر الخلق ، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلهًا[1] .

وجميع الرسل ؛ ردوا على مقالة المنكرين والجاحدين ، وأجابوا بالموافقة على كونهم من البشر دون غيرها .

وقد حكى القرآن ردودهم فقال : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[2] .

أَقَرَّت الرسل بالآدمية ، والمماثلة في البشرية لا تمنع من أن يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده بأن يمنحه النبوة أو غيرها من نعم الله : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[3] .

فجواب الأنبياء : أنهم سَلَّمُوا أن الأمر كذلك ؛ لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾[4] .

فاختار من الملائكة رسلًا ، واختار من البشر رسلًا ، وفق الحكمة التي

---

(١) «**المحرر الوجيز**» (٢/٢٢٢) ، و«**محاسن التأويل**» (٤/٢١٤) .
(٢) [الآية : ١١ : إبراهيم] .
(٣) [الآية : ١٠٥ : البقرة] .
(٤) [الآية : ٧٥ : الحج] .

قدمنا بيانها ، وهي حصول المفاهمة والمجانسة بين الرسول والمرسل إليهم : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[1] .

ذكر القرآن في ردوده وبيانه ؛ الخصوصية التي امتاز بها الرسول على الناس ، وهي الرسالة ، ثم ذلك حقيقته التي يشارك فيها كل فرد من أفرادهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[2] .

قال ابن عطية :

«صدقتم في قولكم : إنهم بشر مثلكم في الأشخاص والخلقة ؛ لكن تباينا بفضل الله وَمَنِّهِ الذي يختص به من يشاء»[3] .

وقال أبو حيان : «سَلَّمُوا لهم في أنهم يماثلونهم في البشرية وحدها ، وأما ما سوى ذلك من الأوصاف التي اختصوا بها فلم يكونوا مثلهم»[4] .

فرسل الله – صلوات الله وسلامه عليهم – : بشر ، ويعتريهم ما

---

(١) [الآية : ١٢٤ : الأنعام] . (٢) [الآية : ١١٠ : الكهف] .

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/٣٢٨) .

(٤) «البحر المحيط» (٥/٤٠٠) ، و«روح المعاني» (٨/٢٨٥) .

يعتري البشر ، ويجري عليهم ما يجري على البشر ، ولم يكونوا خارجين عن طباع البشر : ﴿ ومَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ومَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾(1) .

رابعًا اتهامهم للنبي ﷺ بالجنون والسحر والكهانة والرد عليهم :

لما فند القرآن الكريم مزاعمهم في بشرية الرسول وبين الحكمة من إرسال الرسل من البشر ، انتقل إلى رد مفترياتهم في شخص النبي ﷺ ورسالته :

فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(2) .

وقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم ﴾(3) .

وقال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾(4) .

وقال : ﴿ ن والْقَلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وإِنَّ

(1) [الآية : ٨ : الأنبياء] .

(2) [الآية : ١٨٤ : الأعراف] .

(3) [الآية : ٤٦ : سبأ] .

(4) [الآية : ٢٢ : التكوير] .

لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ ويُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ﴾[1] .

قال ابن عطية : «وسبب هذه الآيات أن قريشًا رمت رسول الله ﷺ بالجنون ، وهو ستر العقول ، بمعنى : أن كلامه خطأ ككلام المجنون ، فنفي الله تعالى ذلك عنه ، وأخبره بأن له الأجر ، وأنه على الخُلُقِ العظيم : تشريفًا له ومدحًا»[2] .

قال القرطبي : «والمفتون المجنون الذي فتنه الشيطان ، وقد كان المشركون يقولون : إن بمحمد شيطانًا ، فقال تعالى لهم : سيعلمون بأيهم المفتون .

أي : الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل»[3] .

أقول : **ذكر الله ثلاث أشياء** : أقسم الله عز وجل بالقلم على نفي الجنون عن النبي ﷺ ، وأثبت له الأجر الموصول ، وأثنى عليه بالخلق العظيم ، ثم بشره وهددهم بأنهم سيعلمون من هو الذي فتن بالجنون .

وقال القرآن في رد مفترياتهم أنه شاعر : ﴿ ومَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ

---

(١) [الآية : ١ - ٦ : القلم] . (٢) «**المحرر الوجيز**» (٥/٣٤٦) .

(٣) «**الجامع**» للقرطبي بتصرف (١٨/٢٢٩) .

قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * ولا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾[2] .

○ ومن جملة مزاعمهم التي فندها القرآن وأبطلها ، قولهم : ﴿ وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وزُورًا * وقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلًا ﴾[3] .

وحكى عنهم في موضع آخر : ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾[4] .

وقد أجاب القرآن عن كل هذه المزاعم وأبطلها واحدة واحدة ، فأثبت أولًا أن هذا الذي ذكروه في حق القرآن هو الظلم والزور ، فقال : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[5] ، فقد فعل هؤلاء الجاحدون والمنكرون بقولهم هذا ظلمًا عظيمًا وزورًا كبيرًا ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق[6] .

(١) [الآية : ٤٢ : الحاقة] .
(٢) [الآية : ٦٩ : يس] .
(٣) [الآية : ٥ : الفرقان] .
(٤) [الآية : ٤٣ : سبأ] .
(٥) [الآية : ٤ : الفرقان] .
(٦) «**تفسير أبي السعود**» (٦/٢٠٢) .

ثم قال عز وجل في بيان مصدر هذا القرآن الكريم : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾(١) .

وقال : ﴿ ومَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ ولَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾(٢) .

وقال جل وعلا : ﴿ ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾(٣) .

وتكذيب الله لهم جاء في آيات كثيرة ، وبين كذبهم وتعنتهم في قولهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ ، وفي قولهم : ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾(٤) وفي قولهم : ﴿ وأَعَانَهُ عَلَيهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾(٥) ، بين ذلك في قوله تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

كيف يكون تعلمه من ذلك البشر مع أنه أعجمي اللسان ، وهذا القرآن عربي مبين فصيح لا شائبة فيه من العجمة ، **فهذا غير معقول ؛** ثم بين شدة تعنتهم ؛ بأنه لو جعل القرآن أعجميًا لكذبوه ، وقالوا :

---

(١) [الآية : ٦ : الفرقان] .
(٢) [الآية : ٣٧ : يونس] .
(٣) [الآية : ١٠٣ : النحل] .
(٤) [الآية : ١٤ : الدخان]
(٥) [الآية : ٤ : الفرقان] .

كيف يكون هذا القرآن أعجميًا مع أن الرسول الذي أُنْزل عليه عربي - كما نص على ذلك القرآن : ﴿ ولَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ ﴾[1] .

بمعنى : أَقرآن أَعجمي ورسول عربي !!؟!! فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي ، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي[2] .

أقول : لو كان هذا القرآن تعلمه من الغلام الرومي الحداد ؛ أليس كان الأولى أن يدعيه لنفسه لينال به ما نال به محمد ﷺ !؟!

وأقول : قولهم : «**معلم مجنون**» هذان أمران متضادان ومتنافيان ، لا يثبت أحدهما بثبوت الآخر ، ولا يصح الجمع بين كونه معلمًا ومجنونًا في آن واحد ؛ لأن المجنون لا يكون معلمًا ولا يتأثر بالتعليم[3] .

قال القاسمي : «ثم أشار تعالى إلى وضوح بطلان بهتهم بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بين ، وهذا القرآن الكريم

---

(١) [الآية : ٤٤ : فصلت] .

(٢) من كلام الشيخ الشنقيطي في «**أضواء البيان**» (٣/٢٧٦) .

(٣) **انظر** : «**البحر المحيط**» (٥/٥١٩) ، و«**روح المعاني**» (٨/٣٤٧) .

لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة ، ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل وما حواه من العلوم ، فضلًا أن ينطق به ، فضلًا أن يكون معلمًا له»[1] .

⊙ **ويواصل القرآن الكريم في دحضه لشبهات القوم ، فقال ردًّا على قولهم :** ﴿ وقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلًا ﴾[2] .

فقال : ﴿ ومَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ المُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾[3] .

وقال جل وعلا في رده على اقتراح المشركين أن يبدل هذا القرآن : ﴿ قَالَ الَذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

فأجابهم القرآن : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ولا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ

---

(١) «**محاسن التأويل**» (٦/٤١٠) . (٢) [الآية : ٥ : الفرقان] .

(٣) [الآية : ٤٩ : العنكبوت] .

أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(١) .

⊙ **ومن إجابات القرآن الواسعة التي تفند مزاعمهم في القرآن ما ذكره الله تعالى في قوله** : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾(٣) .

○ **وقد أتى القرآن في دفاعاته الذاتية** ؛ بأوجه من البراهين الساطعة والأدلة القوية ؛ لدحض شبهاتهم وتقولاتهم في القرآن ، ومن أبينها ؛ قوله تعالى : ﴿ ومَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * ومَا يَنبَغِي لَهُمْ ومَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾(٤) ، فأخبر سبحانه وتعالى ، ونفي أن تكون الشياطين تنزلت به ؛ **من ثلاثة أوجه** :

أحدها : أنه ما ينبغي لهم ؛ لأن من شأنهم الفساد والإضلال ،

---

(١) [الآية : ١٦ : يونس] .

(٢) [الآية : ٧٥ - ٨٠ : الواقعة] .

(٣) [الآية : ١٩٦ : الشعراء] .

(٤) [الآية : ٢١٢ : الشعراء] .

والقرآن فيه الهدى والنور ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة .

الثاني : ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك ، فلا يقدرون عليه .

الثالث : حتى لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا أو شهبًا[١] .

قال ابن عطية : «لما كان بعض ما قال الكفار أن هذا القرآن كهانة : نزلت الآية مكذبة لذلك ، لأن الشياطين قد عزلت عن السمع ، فلا يمكنهم الوصول إلى شيء من ذلك» .

وقال الله تعالى في إثبات هذا القرآن ونفي ما زعمه المنكرون :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * ومَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ومَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * ولا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾[٢] .

وقال : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ * واللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرْشِ

---

(١) «**تفسير ابن كثير**» (٣/٣٨٤) .

(٢) [الآية : ٤٣ : الحاقة] .

مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * ومَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * ولَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ * ومَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ * ومَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

○ **وفي الآية الأولى** : **أقسم الله تعالى** بما يُرى مما هو واقع تحت الأبصار ، وما غاب وخفي عن الأنظار : أن هذا القرآن كلام الرحمن ، يتلوه ويقرأه : رسول كريم : هو محمد ﷺ .

قال القرطبي : «والرسول ها هنا : هو محمد ، ونسب القول إليه ؛ لأنه : يتلوه ويبلغه ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[2] ، وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون ؛ لأنه مباين لأوزان الشعر كلها ، فليس شعرًا ولا نثرًا ، وليس هو بقول كاهن يدعي معرفة الغيب ؛ لأن القرآن يغاير بأسلوبه سجع الكهان ، فالقرآن تنزيل من رب العالمين»[3] .

○ **وفي الآية الثانية** : نسبه وأضافه إلى جبريل ؛ باعتبار أنه نزل به وعلمه : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى * ذُو مِرَّةٍ﴾[4] .

قال تعالى : ﴿ وأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ

---

(١) [الآية : ٢٧ : التكوير] .
(٢) [الآية : ١٦٤ : آل عمران] .
(٣) «**الجامع**» للقرطبي (١٨/٢٧٤) .
(٤) [الآية : ٥، ٦ : النجم] .

تَكُن تَعْلَمُ وكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[1] .

خامسًا ردود القرآن على اعتراضهم على نزول القرآن جملة واحدة ، وبيانه الحكمة من ذلك :

ومن جملة اقتراحات المعاندين والجاحدين التي أجاب عنها القرآن ؛ ما ذكره الله في قوله تعالى :

﴿ وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً ﴾[2] .

قال المشركون : هَلَّا نزل هذا القرآن على محمد ﷺ جملة واحدة دون أن ينزل مُفرَّقًا كما نراه ونسمعه ، وهذا من سوء أدبهم ، فقد طلبوا ما لا يعنيهم ، فرد الله عليهم بقوله :

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ورَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

تضمن هذا الرد : ثلاث أجوبة ، وكل واحد منها يكفي في رد اقتراحهم :

الجواب الأول أنزلناه كذلك مُفرَّقًا ؛ لنقوي به قلبك ، فإن الوحي

---

(١) [الآية : ١١٣ : النساء] .

(٢) [الآية : ٣٢ : الفرقان] .

ذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب وأشد عناية بالرسول ﷺ ؛ لكثرة نزول الملك عليه وتجدد العهد به ، ويكون له في ذلك تسلية وأنسًا .

الجواب الثاني أنزله مرتلًا وفرّقه حتى يسهل حفظه على الناس ، كما أخبر بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾[1] .

الجواب الثالث عن هذا الاقتراح ، أن الله أنزله مفرقًا ولم ينزله جملة واحدة حتى يمكن الإجابة عن كل ما يلتمسون به من طعن وقدح في حق الله وحق ملائكته ورسله : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : «ولا يأتونك بحجة وشبهة ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأفصح من مقالتهم وأحسن تفسيرًا»[2] وقال ابن القيم : «فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب ، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق ، فهي تفسيره وبيانه»[3] .

(١) [الآية : ١٠٦ : الإسراء] .
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/٣٠٥) .
(٣) «بدائع التفسير» (٣/٢٩٤) .

سادسًا ردود القرآن على اعتراضهم أن النبي ﷺ ليس من عظماء الرجال :

فلمّا علم المعاندون والمنكرون بتكرير الله الحجج والبراهين أن الرسل لم يكونوا إلا رجالًا من أهل القرى جاءوا بالإنكار من وجه آخر ، وهو تحكمهم أن يكون الرسول أحد الرجلين العظيمين من مكة أو الطائف مبلغًا عن الله رسالته ، فقالوا كما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[١] .

إن كفار قريش استبعدوا أولًا أن يرسل الله بشرًا ، فلما تقرر أمر موسى وعيسى وإبراهيم ولم يكن لهم في ذلك دفع رجعوا واقترحوا لو كان محمدًا ﷺ ولم يكن نزول القرآن على رجل من إحدى القريتين عظيم ، من مكة والطائف ، وكانوا يقولون : ما وجد رسولًا إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب[٢] ، وقد ذكر الله احتقارهم لرسول الله ﷺ ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾[٣] ؛ لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه ؛ لكثرة ماله وجاهه وشرفه فيهم[٤] .

---

(١) [الآية : ٣١ : الزخرف] .

(٢) «**تفسير الرازي**» (١٥/١٧) ، و«**المحرر الوجيز**» (٥٣/٥) .

(٣) [الآية : ٤١ : الفرقان] .

(٤) «**أضواء البيان**» (٢٤٤/٧)

فأجابهم الله بالإنكار والتجهيل والتعجب : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾(١) .

فالأمر إلى الله ، وليس لهم ، والرحمة معناها هنا النبوة وإن كانت للعموم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢) و﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾(٣) ، فالله هو وحده الذي يعلم من يصلح لهذا المنصب الشريف العظيم ، وهو المدبر لأمر النبوة ، ويختار من يتحمل أعباءها ، كما أنه تعالى قسم بينهم أمر المعاش والأحوال ، وفاوت بينهم ، فكذلك قسم النبوة بين عباده المرسلين .

قال ابن عطية : «ثم أخبر تعالى خبرًا جازمًا بأنه قاسم المعايش والدرجات في الدنيا ، ليسخر بعض الناس بعضًا .

والمعنى : فإذا كان اهتمامنا بهم أن نقسم هذا الحقير الفاني فأحرى أن نقسم الأهم الخطير»(٤) .

---

(١) [الآية : ٣٢ : الزخرف] . (٢) [الآية : ١٢٤ : الأنعام] .

(٣) [الآية : ٧٥ : الحج] .

(٤) «**المحرر الوجيز**» (٥/٥٣) ، و«**روح المعاني**» (١٤/١٢١) .

سابعًا ردود القرآن على اقتراحهم أن يأتي بقرآن غير هذا أو يبدله :

من صور تعنت المشركين واقتراحاتهم التي فندها القرآن وأجاب عنها ؛ مطالبتهم الرسول ﷺ أن يأتينهم بقرآن بغير هذا أو يبدله ، وقد نص القرآن على هذا الاقتراح بقوله : ﴿ وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾[1] .

ذكر الإمام الألوسي أن الآية نزلت في جماعة من قريش قالوا للنبي ﷺ : «إن كنت تريد أن نؤمن لك فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ، وليس فيه ما يعيبها ، أو بدله ، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان حرام حلالًا ، ومكان حلال حرامًا»[2] .

لَقَّنَ الله نبيه الرد القاطع على اقتراحهم وتعنتهم ؛ فقال : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3] .

أي : لا يصح لي بحال من الأحوال أن أبدل هذا القرآن من عند

---

(١) [الآية : ١٥ : يونس] .
(٢) «**روح المعاني**» (١١/٨٥) .
(٣) [الآية : ١٥ : يونس] .

نفسي ومن جهتها ، وإنما أنا أبلغكم ما أنزل الله عليّ منه ؛ لأني أخاف إن عصيت ربي بالتغيير والتبديل عذاب يوم عظيم ، ولا تملكون لي من الله شيئًا .

ثم لَقَّنَ الله رسوله ردًّا آخر عليهم فقال : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ولا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[١] .

أي : قل لهم لو شاء الله تعالى أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لفعل ، ولو شاء أن يجعلكم لا تدرون منه شيئًا لفعل أيضًا ، فأنتم تعلمون أني قد مكثت فيما بينكم مدة طويلة من الزمن قبل أن أبلغكم هذا القرآن ، حفظتم خلالها أحوالي ، وأحطتم خبرًا بأقوالي وأفعالي ، وعرفتم أني ما قرأت كتابًا ، ولا تعلمت من أحد ، مما يشهد أن هذا القرآن إنما هو من عند الله[٢] .

ويقول الزمخشري : «يعني : إن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمرًا عجيبًا عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أميّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ في بلد فيه علم

---

(١) [الآية : ١٦ : يونس] .

(٢) «**الجامع**» للقرطبي (٨/٣٣٠) ، و«**تفسير ابن كثير**» (٢/٤٢٥) .

فيقرأ عليهم كتابًا فصيحًا يبهر كل كلام فصيح ، ويعلو على كل منظوم ومنثور ، مشحونًا بعلوم من علم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ومما يكون ، ناطقًا بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفًا من ذلك ، ولا عرّفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به[1] : **دل ذلك** ؛ على أنه تنزيل من حكيم حميد .

ثامنًا ردود القرآن على تعللهم بالتخوف إن آمنوا مع النبي ﷺ :

ولما أعيتهم الحيل في دفع أجوبة القرآن وردوده ؛ صاروا يتعللون بعلل واهية ، فقال بعض عقلائهم ممن غلبهم الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب ، وغلبه إلفُ ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق : إن نتبع ما جئت به من الهدى تتخطفنا العرب ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[2] ، قال كفار قريش : إن اتبعناك على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب ، فيجتمعون على محاربتنا ، ويخرجوننا من أرضنا .

قال الألوسي : «والآية نزلت في الحارث بن عثمان حيث أتى النبي

(١) «**الكشاف**» (٢/٣١٩) .

(٢) [الآية : ٥٧ : القصص]

ﷺ فقال : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكن نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ، فرد الله عليهم خوف التخطف»(١) ، وفي هذه اعتراف منهم : أن ما جاء به هو الحق ، وأنه الهدى ، ولكنهم يخافون .

فأجابهم الله وأزال تعلقهم بهذه الشبهة فقال : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

قال القرطبي : «أي ذا أمن ، وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضًا ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوهم فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم»(٣) .

وقد فند القرآن هذا الاعتذار وأزاله ؛ فإن الرجل كان يلقى قاتل أبيه وأخيه في الحرم فلا يتعرض له ، وتجبى إلى الحرم ثمرات كل أرض وبلد رزقًا من الله عز وجل : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾(٤) : ببركة دعوة أبيهم إبراهيم ،

---

(١) «**روح المعاني**» (١١/١١٤) .
(٢) [الآية : ٥٧ : القصص] .
(٣) «**الجامع**» للقرطبي (١٣/٢٦٦) .
(٤) [الآية : ٣ - ٤ : قريش] .

فقال : ﴿ وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[1] ، وقال : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[2] .

فكيف يكون الحرمُ آمنًا لهم في حال كفرهم ، ولا يكون آمنًا لهم في حال إسلامهم !؟!

قال أبو حيان : «قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع ، إذا كانوا وهم كفار بالله عباد أصنام قد أمنوا في حرمهم والناس في غيره يتقاتلون ، وهم مقيمون في بلد غير ذي زرع يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات ، فكيف إذا آمنوا واهتدوا»[3] .

تاسعًا ردود القرآن على طلبهم للآيات الحسية :

ولما أجاب القرآن عن كل مقترحاتهم بالأدلة الكافية والبراهين المقنعة ، تمادى المعاندون في طلب المزيد من الآيات الحسية ، وذكر القرآن هذه الطلبات ، **منها** : ما هو محدد بنوع معين ، **ومنها** : ما هو غير محدد .

(١) [الآية : ٢٦ : البقرة] .
(٢) [الآية : ٣٧ : إبراهيم] .
(٣) «**البحر المحيط**» (١٢٠/٧) .

ومثال الأول قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾(١) .

لما تبين عجزهم ، ولزمتهم الحجة وغلبوا على أمرهم ؛ أخذوا يتعللون باقتراح آيات حسية كما ذكرتها الآيات عنادًا ومكابرة ، ولما تضمن اقتراحهم ما هو مستحيل في حق الله تعالى ، وهو أن يأتي بالله والملائكة قبيلا ، أمر الله رسوله ﷺ بالتسبيح والتنزيه عمّا لا يليق به(٢) .

قال جل وعلا : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾(٣) .

أي : ما أنا إلا رسول من البشر ، بعثني الله إليكم ، ولا يمكنني أن أقترح على الله شيئًا من ذلك ، فاكتفى بالتنزيه .

ومثال الثاني ؛ في طلب الآيات دون تحديد نوعها : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

---

(١) [الآية : ٩٣ : الإسراء] .

(٢) **انظر** : «**البحر المحيط**» (٧٨/٦) .

(٣) [الآية : ٩٣ : الإسراء] .

(٤) الآية : ٣٧ : الأنعام] .

أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾[3] .

وكانوا يريدون بذلك ؛ هَلَّا نزل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة ، وكان هذا منهم جحودًا وإنكارًا بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا عن معارضته[4] . وقد لجوا في طلب الآيات بقولهم : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾[5] ، فأجاب القرآن عن كل اقتراحاتهم بأجوبة وردود محكمة المعنى واضحة البرهان تمتاز بالإيجاز والقصد .

وأول هذه الردود ؛ فيها بيان أن الله عز وجل له القدرة التامة على أن يأتيهم بما سألوا من الآيات لا يعجزه شيء ولكن لا يعلمون عاقبة ما في نزول الآيات المقترحة ؛ لأن الله قضى إذا أنزل الآيات التي اقترحوها وهم على كفرهم قضى عليهم بالعذاب .

وثمة أمر آخر ، يظهر من مجموع ردود القرآن : أن الآيات التي

(١) [الآية : ١٠٩ : الأنعام] .
(٢) [الآية : ٢٠ : يونس] .
(٣) [الآية : ٧ : الرعد] .
(٤) «**الجامع**» للقرطبي (٦/٤١٩) .
(٥) [الآية : ١٢٤ : الأنعام] .

طلبوها وألحوا في نزولها : **تكون ملجئة للإيمان ، وحينئذ يزول الاختيار** ؛ الذي هو قاعدة التكليف : ﴿ إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾(١) ؛ **ولذلك** : كانت تختم بعض الردود بقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) ، وبقوله : ﴿ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾(٣) .

قال الألوسي : «فلا يدرون أن عدم تنزيلها مع ظهور قدرته سبحانه وتعالى عليه ، لما أن في تنزيلها قلعا لأساس التكليف المبنى على قاعدة الاختيار ، أو استئصالاً لهم بالكلية»(٤) .

ثم بين عز وجل الحكمة في عدم إجابتهم لمقترحاتهم ، فقال : ﴿ ومَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾(٥) ، **فأخبر تعالى** ؛ أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال ، وقد اقتضت حكمته تعالى أن لا يعاجلهم بالعذاب ، **والمعنى** : وما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها المنكرون والجاحدون إلا تكذيب من سبقهم من الأمم حيث

---

(١) [الآية : ٤ : الشعراء] .
(٢) [الآية : ١٣١ : الأعراف] .
(٣) [الآية : ١١١ : الأنعام] .
(٤) «**روح المعاني**» (٥/٢٠٦) .
(٥) من [الآية : ٥٩ : الإسراء] .

اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله[1] .

ثم نفي الرسل جميعًا أن تكون المعجزات والخوارق والآيات بأيديهم ، فقالوا جميعًا : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[2] ، ونفى الله عن الرسل أن يأتوا بالآيات : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[3] . ثم لقن الله الرسل الرد ؛ بأن الآيات المقترحة لا يملكونها فهي عند الله ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[4] . وقال في موضع آخر : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[5] .

قال أبو حيان : «هذا أمر بالرد عليهم ، وأن مجيء الآيات ليس لي إنما ذلك لله تعالى ، وهو القادر عليها ينزلها على وجه المصلحة كيف شاء لحكمته ، وليست عندي فتقترح عليّ»[6] .

قال الألوسي : «أمرها في حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، لا تتعلق بها قدرة أحد ولا

---

(١) **انظر** : **«تفسير ابن كثير»** (٣/٥١) .
(٢) من [الآية : ١١ : إبراهيم] .
(٣) من [الآية : ٣٨ : الرعد] ، [الآية : ٧٨ : غافر] .
(٤) [الآية : ١٠٩ : الأنعام] .
(٤) [الآية : ٥٠ : العنكبوت] .
(٦) **«البحر المحيط»** (٤/٢٠٣) .

مشيئته استقلالًا ولا اشتراكًا بوجه من الوجوه ، حتى يمكنني أن أتصدى لإنزالها»[1] ؛ **ولذلك** : عقب على مقترحاتهم بقوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾[2] نزه الله تعالى أن يتطاول على الله في طلب إجابتهم ، واكتفى بتنزيه الله .

○ وتتواصل ردود القرآن على طلب المزيد من الآيات : قال تعالى : ﴿ ويَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ ﴾[3] .

وقال : ﴿ ويَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ويَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[4] : فإن هذه المطالب هي من علم الغيب الذي استأثر الله به ، ووظيفة الرسول الإنذار والتخويف لمن عاند وجحد بسوء المصير والهداية التي هي أقوم لمن آمن واستسلم .

عاشرًا ردود القرآن على زعمهم عدم كفاية الأدلة على النبوة :

ومن ردود القرآن على مطالبهم الآيات : قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾[5] .

---

(١) «**روح المعاني**» (٦٧٥/٦) .
(٢) [الآية : ٩٣ : الإسراء] .
(٣) [الآية : ٢٠ : يونس] .
(٤) [الآية : ٢٧ : الرعد] .
(٥) [الآية : ١٣٣ : طه] .

قال أبو حيان : «أي القرآن الذي سبق التبشير به وبإيحائي من الرسل به الكتب الإلهية السابقة المنزلة على الرسل ، والقرآن أعظم الآيات في الإعجاز ، وهي الآية الباقية إلى يوم القيامة»[1] .

والاستفهام للتوبيخ والتقرير ، أجهلوا ولم يكفهم اشتمال القرآن على بيان ما في الصحف الأولى ، فإن هذا القرآن قد بشرت به الكتب السابقة فهو أعظم الآيات في الإعجاز ، ويشبه الآية السابقة في الرد على المعاندين في طلب الآيات قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

هذا جواب لقولهم ورد على طلبهم في قوله : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾[3] .

قال الألوسي : «كلام مستأنف ، وأمره من جهته تعالى ، ردًّا على اقتراحهم وبيانًا لبطلانه ، والهمزة للإنكار والنفي ، فالقرآن آية مغنية عن سائر الآيات وهو الناطق بالحق يتلى عليهم ، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد وجودها وتكون في مكان

---

(١) «**البحر المحيط**» (٦/٢٧٠) .

(٢) [الآية : ٥١ : العنكبوت] .

(٣) [الآية : ٥٠ : العنكبوت] .

دون مكان»[1] .

فدلت الآية ؛ على أنه يجب الاستغناء بالقرآن عن غيره وإن الرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقص ، فالقرآن وحده تقوم به الحجة ، وتتضح به المحجة ، وفيه غناء وكفاية[2] .

قال ابن تيمية : «فإن القرآن من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع في القرآن من الآيات ما لم يجتمع في غيره ، فإنه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به»[3]

لما فند القرآن جميع مقترحاتهم وردّها وأبطل مزاعمهم وضاقت عليهم الحيل ، وعييت بهم العلل راحوا يحلفون بالله لئن تحققت لهم هذه المطالب المتعنتة ليؤمنن ، حتى طمع بعض المسلمين ممن كانوا قد آمنوا أن يجيبهم النبي ﷺ وتمنوا ذلك .

فأجاب الله عن ذلك بقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا

---

(١) «**روح المعاني**» (٨/١٢) ، و«**البحر المحيط**» (١٥٢/٧) .

(٢) **انظر** : «**الجامع**» للقرطبي (٣١٧/١٣) . (٣) «**دقائق التفسير**» (٢٩٨/٢) .

جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وقد وجد من بعض المسلمين من يتمنى أن يجيبهم الله إلى طلبهم ، ويقترحون على رسول الله ﷺ أن يسأل ربه هذه الآيات التي يقترحها المقترحون طمعًا في إسلامهم ، **فأجابهم** الله بهذه الآية ، فما وقع لهم في أول مرة ومنعهم من الهدى يمكن أن يتكرر وقوعه كذلك بعد نزول الآية فيمنعهم من الهدى كرة أخرى[2] .

قال الألوسي : «وكان المؤمنون يتمنون نزولها ، طمعًا في إسلامهم»[3] .

وقال الزمخشري : «يعني : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، وأنتم لا تدرون بذلك ، **وذلك** ؛ أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها وهم لا يدرون ما سبق علم الله به من أنهم لا يؤمنون»[4] .

بعد أن بيَّنَ القرآن في ردوده المتوالية التي فيها الكفاية والإقناع ، تقوم بها الحجة وتتبين بها المحجة ؛ بيَّنَ أن هؤلاء الجاحدين والمنكرين لا

---

(١) [الآية : ١٠٩ : الأنعام] .
(٢) «**الظلال**» (١١٨٦/٣) .
(٣) «**روح المعاني**» (٣٦٨/٥) .
(٤) «**الكشاف**» (٥٤/٢) .

يؤمنون لا لنقص في الحجة ، ولا لغموض في المحجة ، وإنما هو الإنكار والجحود ، قال تعالى : ﴿ ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[١] .

قال أبو حيان في تفسير هذه الآية : «لو آتيناهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة في قولهم : ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ ﴾[٢] ، وحشرنا كل شيء عليهم من السباع والدواب والطيور وشهدوا بصدق الرسول لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله ، والغرض : التيئيس من إيمانهم»[٣] ؛

لأن القرآن فيه الغناء والكفاية ، ومثل هذه الآيات ؛ قوله تعالى : ﴿ ولَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[٤] لو عاينوا نزول الكتاب من السماء لقالوا ما هذا إلا سحر كما أخبر عنهم في قوله : ﴿ ولَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[٤] : لو أن الله عز وجل فتح لهم بابًا من أبواب السماء

---

(١) [الآية : ١١١ : الأنعام] .
(٢) [الآية : ٧ : الحجر] .
(٣) «**البحر المحيط**» بتصرف (٤/٢٠٨) .
(٤) [الآية : ٧ : الأنعام] .
(٥) [الآية : ١٥ : الحجر] .

وظلوا يصعدون فيه ورأوا من آيات الله لقالوا لفرط عنادهم : إنما سدت أبصارنا وخدعت وسحرنا محمد ﷺ .

الحادي عشر ردود القرآن على المنكرين لليوم الآخر :

من أوسع الردود وأبلغها وتنوعها ، والتي أخذت حيزًا كبيرًا من كتاب الله ، وكثر فيها جدل المنكرين والجاحدين : ردود القرآن على المنكرين والجاحدين ليوم المعاد ، وقد أفاض القرآن الكريم في الاستدلال على قضية البعث والنشور ، فلا تكاد تقرأ سورة من الطوال أو من المئين أو المثاني ، أو من المحكم إلا وتجد الحديث عن هذه القضية ، وبمختلف الطرق والأساليب ، وقد ناقش القرآن هذه المسألة وجلاها بما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل المنطق والجدل العقيم ، فإن القرآن قد قرر إثبات البعث والنشور بأبلغ وجه وأحسنه .

فقد حفل كتاب الله بالبعث والنشور ؛ لأنه هو الْمَعْبَر لليوم الآخر ، وهو البوابة ، فكل ما أخبر به القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة وأحوالها من حساب وعقاب وجنة ونار موقوف على صحة إثبات البعث والنشور ، **ولذلك** ؛ ركز القرآن الكريم على هذا الباب من أبواب عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، ولم يهمل الجانب الآخر .

وقد عالج القرآن هذا النفي والإنكار من قبل المكذبين بوسائل وطرق شتى[(١)] ، عالج شبهاتهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع ، والحجة الدامغة والتذكير البالغ ، تارة يلفت أنظارهم إلى خلق أكبر من خلقهم ، وأخرى يذكرهم بأنفسهم وأطوار نشأتهم ، وتارة أخرى يوجههم إلى ما تخرجه الأرض الميتة من الزروع والثمار ، ومرة أخرى بأخبار الله الصادقة المؤكدة ، وإذا لم يفلح هذا ولا ذاك : تحداهم بأن يكونوا : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ ، وإذا كنتم كذلك واحدًا من الثلاثة : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[(٢)]

شبهات المنكرين والجاحدين :

سجل القرآن الكريم شبهات المنكرين ، وكررها في أكثر من موضع ، **وحاصلها** : أنهم استبعدوا أن هناك حياة بعد الموت والفناء ، وقد ذكر القرآن هذه الشبهات ، **منها** : قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[(٣)] .

---

(١) لا تنس أخي القارئ إن وسائل القرآن وطرقه في حد ذاتها غايات ومقاصد ، وليس كما الشأن في التربية الحديثة .

(٢) [الآية : ٥٠ ، ٥١ : الإسراء] . (٣) [الآية : ٣ : ق] .

والذي يدل عليه القرآن : أن العجب حصل للجميع من هذه القضية ، إلا أن المؤمنين نظروا فصدقوا بأخبار الله ، والكافرون استبعدوا ذلك[1] .

وإنكار البعث والنشور : قديم ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن صدور الإنكار والاستبعاد من تلك الأمم المكذبة لرسلها ، فقال : ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا وعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وعِدْنَا نَحْنُ وآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[2] ، والآيات في مثل هذا كثيرة .

وقد قلد هذا الإنكار وهذا التكذيب كفار قريش - كما أخبر القرآن عنهم : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ﴾[3] ، وأكدوا هذا النفي بالقسم : ﴿ وأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾[4] ، وحاصل شبهتهم كما قالوا : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[5] ، وكما قال بعضهم لبعض : ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ

---

(١) **انظر** : «المحرر الوجيز» لابن عطية (٥/١٥٦) .

(٢) [الآيات : ٨١ ، ٨٣ : المؤمنون] ، **ومثلها** : [الآيات : ٦٧ ، ٦٨ : النمل] .

(٣) [الآية : ٧ : التغابن] .

(٤) من [الآية : ٣٨ : النحل] .

(٥) من [الآية : ١٠ : السجدة] .

لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[1] ، وقال قائلهم : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[2] .

وتقرير شبهتهم - كما وضحتها الآيات القرآنية الكثيرة : أن اختلاط أجزاء أجسادهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص[3] .

◎ أجوبة القرآن وردوده على المنكرين والجاحدين :

استقرأت القرآن الكريم ، وتتبعت آياته وسوره التي ترد على المنكرين والجاحدين ، وإثبات هذه القضية التي كثر فيها المراء ، فرأيت أنواعًا متعددة ، وطرقًا شتى ، وبمختلف الأساليب ، تجمع بين الدليل والمدلول في آن واحد ، وتجمع بين البيان والبرهان ، وبين الحكم والأحكام ، ولا يستطيع القلم أن يصور ما أحسسته وأنا أُقَلِّبُ الطرف في هذه الردود من : روعة ، وجمال ، وأحكام ، وحكم ، وبسط ، وإيجاز ، **ولا عجب في ذلك** ؛ فهو وجه من وجوه الإعجاز القرآني : « ... ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا ينقضي

(١) من [الآية : ٧ : سبأ] . (٢) من [الآية : ٧٨ : يس] .
(٣) **انظر** : «**بدائع التفسير**» لابن القيم (١٩٣/٤) .

عجائبه ...»[1] .

○ **وهذه الردود القرآنية على ذوي الجحود والإنكار تتنوع على النحو التالي :**

أولاً إخبار الله عز وجل بأنه يحيي الموتى :

أخبر الله عز وجل في كتابه الكريم أخبارًا كثيرة ؛ بأنه هو الذي يحيي ويميت ، وأنه القادر وحده على إعادة الموتى ، وأخبار الله حق وصدق ، وتقع كما أخبر وقد أكد هذا المعنى في قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾[2] ، وقد وقع بمثل ما أخبر في الدنيا ، أخبر الله في سياق نعم الله على بني إسرائيل أنه أحياهم بعد أن أماتهم ، وأخبر أنه أحيا قتيل بني إسرائيل لما ضربوه ببعض أجزاء البقرة ، وكذا أحيا الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت ، بعد أن أماتهم[3]

ثم ذكر الله عز وجل قصصًا عملية لإثبات البعث والنشور بعد الموت والفناء : الأولى : تتعلق بالرجل المجادل الذي حاج إبراهيم في

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في فضائل القرآن من «**جامعه**» (١٧٢/٥) .

(٢) [الآية : ٥ ، ٦ : والذاريات] .

(٣) الأول في [الآية : ٥٦] ، والثاني في [الآية : ٧٣] ، والثالث في [الآية : ٢٤٣] البقرة .

قدرة الله ؛ فبهت .

والثانية : تتعلق بالرجل الصالح الذي مر على القرية الخاوية ، فأراه الله مثالًا من نفسه على الإعادة .

والثالثة : قصة إبراهيم الخليل مع الطيور الأربعة ، وفيها الدليل الحسي المشاهد على الإعادة بعد الفناء[1] .

ثانيًا ردود القرآن على استبعادهم للخلق الجديد بالعلم والقدرة :

قال تعالى جوابًا للمنكرين والجاحدين : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾[2] .

وقال أيضًا : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ وانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾[4] .

فالله عز وجل ؛ يعلم ذرات هذه الأجساد في التراب ، وقادر على

(١) «**تفسير ابن كثير**» (١/٧٥) ، و«**أضواء البيان**» (٣/١٧٠) في [الآيات : ٢٥٨ - ٢٦٠ : البقرة] .

(٢) [الآية : ٤ : ق] .

(٣) [الآية : ٣ ، ٤ : القيامة] .

(٣) من [الآية : ٢٥٩ : البقرة] .

إعادتها خلقًا ويكسو العظام لحمًا[1] .

فالله عز وجل ؛ قادر على جمع عظمه ولحمه ، وأن يعيد أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه وأدقها أجزاء[2] .

ثالثًا **ردود القرآن على المنكرين والجاحدين بلفت أنظارهم إلى الخلق الأول** : وقد رد القرآن في مواضع كثيرة على هؤلاء المخالفين ، ولفت أنظارهم إلى التفكر في الخلق الأول -كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[3] ، وقال : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[4] ، وَبَيَّنَ أن الإعادة أيسر وأسهل في ميزان البشر فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾[5] .

إن هؤلاء المنكرين والجاحدين للبعث والنشور قد نسوا الإيجاد الأول .

ولذلك ؛ جاء في ضمن ردود القرآن عليهم التذكير بالخلق الأول -

---

(١) **انظر** : «**فتح القدير**» (٤٧٢/٥) ، و«**تفسير ابن كثير**» (٤٧٨/٤) .

(٢) «**فتح البيان**» (٤٣٦/١٤) .

(٣) [الآية : ٧٩ : يس] .

(٤) من [الآية : ٥١ : الإسراء] .

(٥) من [الآية : ٢٧ : الروم]

كما في قوله : ﴿ وضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ونَسِيَ خَلْقَهُ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ولَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾[2] .

وذكره بأطوار خلقه في أكثر من موضع - كما جاء في أول سورة الحج والمؤمنون وغيرهما : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[3] .

رابعًا **ردود القرآن على المكذبين والجاحدين يلفت أنظارهم إلى**

ما هو أكبر وأعظم من ردود القرآن على الجاحدين ما جاء في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[4] .

ذكر الله في هذه الآية ونظيراتها ردودًا قوية محكمة ترد على

---

(١) من [الآية : ٧٨ : يس] . (٢) [الآية : ٦٧ : مريم] .

(٣) [الآية : ٥ : الحج] ، ومثلها في : [الآية ١٢ - ١٤ : المؤمنون] .

(٤) [الآية : ١١ : والصافات] .

المنكرين والجاحدين ، أَهُمْ أشد خلقًا وأصعب إيجادًا واختراعًا أم من خلقنا من المخلوقات التي هي أعظم وأكبر .

وقد جاء الجواب مصرحًا به : أن السماء أشد خلقًا منهم في قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١) ؛ لأن من المعلوم بالضرورة : أن من خلق الأعظم الأكبر قادر على أن يخلق الأصغر الأقل ، وقد جاء موضحًا الاستفتاء المذكور في قوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾(٢) ، وقال : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٣) ، وقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤) .

خامسًا من ردود القرآن وأجوبته على المنكرين والجاحدين ليوم البعث : أنه لفت أنظارهم إلى إحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، وهذا نوع من أدلة القرآن على وقوع البعث والنشور ؛ لأن ذلك مما يحسونه

---

(١) [الآية : ٥٧ : غافر] .
(٢) [الآية : ٢٧ : والنازعات] .
(٣) [الآية : ١٥ : ق] .
(٤) [الآية : ٣٣ : الأحقاف] ، ونحوها في : [الآية : ٨١ : يس] ، و[الآية : ٩٩ : الإسراء] .

ويشاهدونه في حياتهم ، فقد قرب الله لهم الإحياء بعد الموت بالزروع والنبات في الأرض الموات ، وهي ظاهرة مألوفة متكررة .

وقد استدل القرآن على المعاد بهذه الظاهرة فضرب المثل ؛ فشبه الجثث الهامدة والعظام البالية بالأرض الميتة ، وشبه خروج الناس أحياء من قبورهم بخروج النبات من الأرض التي تحركت بالمطر وربت وأنبتت ، قال تعالى : ﴿ واللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[1] ، وقال : ﴿ ومِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ ورَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المُوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] ، والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة[3] .

قال أبو الحسن الماوردي : «جعل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها دليلًا لمنكري البعث على إحياء الخلق بعد الموت استدلالًا بالشاهد على الغائب»[4] .

---

(١) [الآية : ٩ : فاطر] ، **انظر** : «تفسير ابن كثير» (٢/٢٣٢) .

(٢) [الآية : ٣٩ : فصلت] ، **انظر** : «**الخازن**» (٢/٢١٣) .

(٣) **منها** : [الآية : ١١ : الزخرف] ، [الآية : ٥٧ : الأعراف] ، [الآية : ٥٠ : الروم] ، [الآية : ٥ : الحج] .

(٤) «**النكت والعيون**» (٣/٥٠٦) .

سادسًا بيان حكمة الله جل وعلا في مخلوقاته :

بيّن الله عز وجل في ردوده على منكري البعث الحكمة من خلق هذا الإنسان ، وباقي مخلوقاته ، فلم يخلقه عبثًا ، بل لغاية وحكمة ، وهو الابتلاء بالتكاليف : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[1] ، وقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾[2] ، وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[3] ، وقال عن بقية مخلوقاته : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[4] فأنكر الله على المعاندين والمنكرين أن يكون الله عز وجل خلق الإنسان سدى وعبثًا بدون أن يؤمر وينهى ، وأنه لا يرجع إليه ليجازيه على عمله خيرًا أو شرًا ، ونفى الله عز وجل أن يكون خلق السموات والأرض باطلًا ، كما هو ظن الكفار ؛ **ولذلك** : نزّه نفسه أن يكون قصد ذلك ، فقال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾[5] : نزّه نفسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، ومنها أن يكون خلق الإنسان عبثًا .

---

(١) [الآية : ٣ : الدهر] .

(٢) [الآية : ١١٥ : المؤمنون] .

(٣) [الآية : ٢٧ ، ٢٨ : القيامة] .

(٤) [الآية : ٢٧ : ص] ، **وانظر** : «**أضواء البيان**» (٥/٥٦٦) .

(٥) [الآية : ١١٤ : طه] .

ومن ثَمَّ ؛ كان ولابد من حياة أخرى بعد الموت لينال كل جزاء عمله ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾(١) ، وقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾(٢) .

قال الألوسي : «تضمنت الآية الدليل على وقوع البعث ، حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح ، والتكاليف لا يتحقق إلا بمجازاة ، هي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة» .

سابعًا من ردود القرآن وأجوبته التحدي للمنكرين والجاحدين :

هذا نوع من الأنواع الكثيرة التي تضمنها كتاب الله في ردوده على المخالفين والمكذبين ، فإذا لم يفلح معهم هذا التذكير ولا ذلك : انتقل معهم القرآن في ردوده ومناقشاته إلى مقام آخر ، وهو مقامُ التحدي والتعجيز فدعاهم إلى أن يكونوا حجارة ، ثم تدرج معهم إلى أن يكونوا أقوى منها في الصلابة ، وهو الحديد ، ثم انتقل بهم إلى أن يكونوا خلقًا آخر مما يعظم عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه مما هو أشد امتناعًا وصلابة فإن الله سيعيدكم ويحييكم ويبعثكم كما فطركم أول مرة ، فإن الرفات والعظام مساو للحجارة والحديد

(١) [الآية : ٣٥ ، ٣٦ : القلم] .

(٢) [الآية : ٢٨ : ص] .

وغيرهما بالنسبة إلى قدرة الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾(١) .

قال ابن جرير : «إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظامًا ولحمًا فكونوا أنتم حجارة في الشدة أو حديدًا في القوة ، فسيعيدكم الذي فطركم أول مرة»(٢) ، ولو كنتم أبعد شيء من الحياة ، وأشد صلابة ، فإن الله قادر على أن يبعثكم(٣) .

قال الشيخ الطاهر بن عاشور : احتج عليهم القرآن في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم واخترعهم من تراب فكذلك يعيدهم»(٤) والله أعلم .

ما أجمل وألذ الاشتغال بكتاب الله ؛ تدبرًا ، وفهمًا ، وتفقهًا !

فعلى رجال التربية والتعليم : أن يستفيدوا من أجوبة القرآن وردوده المتنوعة في مجال الدعوة والتعليم والتذكير ، والله أعلم .

---

(١) [الآية : ٥٠ ، ٥١ ، الإسراء] . (٢) «**فتح البيان**» (٧/٤٠٤) .

(٣) «**محاسن التأويل**» (٦/٤٦٨) ، و«**البحر المحيط**» (٦/٤٤) .

(٤) «**التحرير والتنوير**» (١٣/٤٦٣) .

خاتمة البحث

1 **من نتائج هذا البحث وثمراته** : بيان أن القرآن الكريم لا يزال غضًّا طريًّا للتأمل والتدبر ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وإنه قد اشتمل على ردود تضمنت حججًا عقلية ينقاد لها عقل المخاطب ويذعن ، سواء كان من المؤمنين المنقادين لهداية القرآن أو كان من الجاحدين المعاندين ؛ **لذلك** : اتجه القرآن في مخاطبة هذا الصنف من البشر إلى الإلزام العقلي بالبراهين العقلية التي يسلم لها أهل العقول السليمة .

ومن تأمل القرآن الكريم ؛ علم أن هذه الردود القاطعة والبراهين الساطعة من لدن حكيم خبير جاءت محكمة الألفاظ واضحة المعاني ، فلا يسعه إلا أن يجزم ويقطع بأن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد .

وإن هذه الشبهات والطعون والأمثال التي ضربوها للنبي ﷺ والاقتراحات والاعتراضات يظهر عليها الحيرة والاضطراب والتناقض العجيب والتنافر المعيب : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[1] .

---

(١) [الآية : ٥ : ق] .

2 **من أَهَمِّ ما يستفاد من هذا البحث** : بيان أن القرآن كله من أول آية إلى آخر آية كالسورة الواحدة ، لا يمكن التفريط في أي جزئية ، ولا يمكن العمل ببعض ما جاء فيه ، ولا يمكن الاقتصار على بعضه ؛ ولذلك كان حمزة وهو أحد القراء السبعة لا يبسمل بين السورتين وذكر ابن هشام في «**مغني اللبيب**» ، عن أبي علي الفارسي : أن القرآن كله كالسورة الواحدة(١)

أقول : ولذلك تجد في القرآن أن رد الفرية ، ودحض الشبهة . قد يكون بعدها مباشرة ، وقد يفصل بينهما موضوع طويل ، وقد يكون الاعتراض والشبهة في سورة والرد والجواب عنها في سورة أخرى لا تليها ، بينهما سور كثيرة :

فمثال الأول : مما يقع فيه الرد بعد الشبهة مباشرة قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ : الرد السريع المباشر : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ .

ومثال الثاني : مما يقع فيه الرد على الشبهة في السورة نفسها وبينهما فصل طويل يكاد ينسيك موقع الشبهة ، قوله تعالى في آخر

---

(١) **انظر** : «**التحرير والتنوير**» (١/٢٧) .

«سورة : ص» : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾[1] : فهذا جواب ورد لقولهم في أول السورة كما حكاه القرآن : ﴿وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[2] وبينهما أكثر من ستين آية ، وقوله عز وجل في آخر السورة : ﴿ ومَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ ﴾[3] ، هو جواب ورد لقولهم في أول السورة : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا واحِدًا ﴾[4] ، وقوله تعالى في آخر السورة : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾[5] : هو جواب وتفنيد لزعمهم - كما حكاه القرآن في أول السورة : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ ﴾[6]

ومثال هذا مما تقع فيه الشبهة في سورة ، ويقع الجواب عنها في سور أخرى كثير ، منه - كما حكاه القرآن عنهم - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[7] ،

والجواب عن هذا الزعم الباطل جاء في سور أخرى متعددة ، قال تعالى : ﴿ ن والْقَلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[8]

---

(١) [الآية : ٦٥ : ص] .
(٢) [الآية : ٤ : ص] .
(٣) [الآية : ٦٦ : ص] .
(٤) [الآية : ٥ : ص] .
(٥) من [الآية : ٧٠ : ص] .
(٦) من [الآية : ٧ : ص] .
(٧) من [الآية : ٦ : الحجر] .
(٨) [الآية : ٣ : القلم] .

وجاء رده في سورة أخرى منها ، قوله تعالى : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[1] .

ومما حكاه القرآن عنهم في «سورة المؤمنون» : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾[2]

والجواب والرد وقع في سور أخرى منها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾[4] .

◎ **فردود القرآن وأجوبته لا تزال تفند كل ما قيل** ؛ وما قد يقال ، إذ هي تلقين لنا بالرد على السفهاء ، فعلينا أن نفزع إلى القرآن عند كل ضلالة ، وكل شبهة وكل اعتراض تحقيقًا لوعد الله الصادق : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

وأخيرا .. فليزن طلاب علم هذا الزمن تعليمهم بما جاء في القرآن الكريم ، ولينظروا أين مكانهم من فهم القرآن والتفقه فيه ، وما حظهم من هدايته ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) من [الآية : ٢٢ : التكوير] .
(٢) من [الآية : ٧٠ : المؤمنون] .
(٣) من [الآية : ١٨٤ : الأعراف] .
(٤) من [الآية : ٤٦ : سبأ] .

ملخص البحث

○ القرآن الكريم معينه لا ينضب ، ولا يخلق على كثره الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، فقد حوى علوما جليلة ، ومن بين هذه العلوم : «ردود القرآن على ذوي الجحود والإنكار» ، فقد حفل كتاب الله بهذا النوع من علوم القرآن ، ولم يترك القرآن تلك الشبهات والاعتراضات والاقتراحات والطعون التي أثارها المنكرون والجاحدون بدون جواب ، بل أنزل الله آيات بينات ، لتفنيدها ودحضها بالأدلة والبراهين المنوعة ، وإزالة آثارها من نفوس المؤمنين ، ولقنهم الإجابة الشافية .

○ وردود القرآن ومنقاشاته تختلف عن جدل المجادلين ، ولا ينبغي أن تقحم في باب الجدل المنطقي للمتكلمين ، فإن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع ، وما جاء فيه من أدلة وبراهين ومناقشات هو نوع من أنواع البيان القرآني فحسب ، وإذا وجد منه ما يفهم الجدل في بعض الأدلة والبراهين ، فذلك غير مقصود كالآيات التي جاءت موزونة على نمط الشعر ، وكالآيات التي جاءت مسجوعة ومع هذا لا يقال بسبب وجود هذا أو ذاك : إن القرآن من قبيل الشعر ، أو من قبيل السجع ،

فكذلك الآيات التي جاءت فيها براهين وأدلة ، ووافقت مناهج الجدل للمتكلمين ، فإننا لا نسميه الجدل القرآني ، وإنما هو بيان وتفسير وردود ، وستظل تلك الأحوال النادرة مندرجة تحت البيان القرآني ، وهو أوسع مدلولا من جدل المتكلمين ، فحجج الله وبراهينه واضحة جلية ، يفهمها المخاطب ، ولا تحتاج إلى كد الذهن وإعمال الفكر ..

وأهمية هذا الموضوع كبيرة وصلته بالقرآن كصلة الفرع بالأصل ، بل إن علاقته بالقرآن كعلاقة الجزء بالكل ، وقد شغل حيزًا كبيرًا من كتاب الله تعالى ، وإن ردود القرآن على مفتريات ذوي الجحود والإنكار أبلغ الردود وأصدقها وأحكمها وتضمنت حججًا عقلية يذعن لها المخاطب وينقاد .

o وإن الشبهات التي أثارها الجاحدون ، ويثيرها أعداء الإسلام من وقت نزول القرآن وإلى يومنا هذا ، وإلى يوم الدين هي في جملتها متشابهة ، لا تخرج عن شبه السالفين ومنكراتهم ؛ لأن المكذبين والجاحدين في كل زمان ومكان يتشابهون في الطباع كما قرره القرآن ، ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلا وفي القرآن العظيم الرد القاطع والبيان الشافي ، وإذا تتبعت آيات الرحمن وجدتها قد أتت بعدد كبير

من شبه المنكرين والجاحدين واعتراضاتهم ، ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأبلغه .

○ فإن المنكرين والجاحدين جاءوا بكلمات في حق الله تعالى ، وجاءوا بكلمات في حق ملائكته ، ووصفوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأوصاف ونعوت شتى ، فأفاض القرآن في رد هذه المفتريات ، ودفع هذه الشبهات ، وأجاب عنها بأسلوب واقعي حيث ساق لهم الحقائق بطريقة يغلب عليها طابع الموازنة والاستشهاد بالواقع وضرب لهم الأمثال من أنفسهم ورد دعاويهم الباطلة .

○ ثم انتقلت ردود القرآن إلى دفع شبهاتهم حول ذات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته ، وفند جميع مزاعمهم ، وإن هذه الدعاوى والأمثال التي ضربوها للنبي ﷺ والاقتراحات والاعتراضات تظهر عليها الحيرة والاضطراب والتناقض العجيب والتنافر المعيب ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ .

ثم عالج القرآن نفيهم وإنكارهم للبعث والنشور بوسائل وطرق شتى ، عالج شبهاتهم بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، والحجة الدامغة ، والتذكير البالغ ، تارة بلفت أنظارهم إلى خلق أكبر من

خلقهم، وأخرى يذكرهم بأنفسهم وأطوار نشأتهم ، وتارة أخرى يوجههم إلى ما تخرجه الأرض الميتة من الزروع والثمار ، ومرة أخرى بأخبار الله الصادقة المؤكدة ، وإذا لم يفلح هذا ولا ذاك مع طائفة بالغوا في الجحود والإنكار انتقلت ردود القرآن معهم إلى أسلوب التحدي والتعجيز ، بأن يكونوا حجارة أو حديدًا ، أو خلقًا آخر مما يعظم عندهم ، مما هو أشد صلابة منهم ، فسيعيدهم الذي فطرهم أول مرة ، وحينئذ ينغضون رؤوسهم ، والله أعلم .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

فهرس مصادر البحث

1 «الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي ، ت 911 هـ ط بيروت 1407 هـ .

2 «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» لمحمد الأمين الشنقيطي ط بيروت .

3 «البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي ، ط دار المعرفة بيروت 1391 هـ .

4 «بدائع التفسير» الجامع لتفسير ابن القيم جمع يسري السيد ، دار ابن الجوزي ، الدمام 1414 هـ .

5 «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

6 «التحبير في علم التفسير» لجلال الدين السيوطي ، ط دار المنار القاهرة .

7 «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا ، ط دار المعرفة ، بيروت .

8 «تفسير عبد الحميد بن باديس» ، منشورات مؤسسة المعارف – الجزائر .

9 «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ، ط دار المعرفة ، بيروت .

10 تفسير الفخر الرازي «مفاتيح الغيب» ، ط دار الفكر ، بيروت .

11 «تفسير أبي السعود» ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

12 «التحرير والتنوير» للشيخ الطاهر بن عاشور ، ط دار التونسية ، تونس .

13 «الجامع لأحكام القرآن» لابن عبد الله القرطبي، ط دار الكتاب، بيروت .

14 «روح المعاني» لشهاب الدين الألوسي ، ط دار الفكر ، بيروت .

15 «زاد المسير في علم التفسير» لأبي الفرج ابن الجوزي ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

16 «دقائق التفسير» لابن تيمية ، ط مؤسسة علوم القرآن ، دمشق بيروت .

17 «استخراج الجدل من القرآن الكريم» لناصح الدين الحنبلي ، ط الفرزدق التجارية ، بيروت .

18 «شرح الطحاوية» لعلي بن محمد بن العز الحنفي ، ط مكتبة المعارف ، الرياض .

19 «صفوة التفاسير» لمحمد علي الصابوني ، ط دار الفكر ، بيروت .

20 «في ظلال القرآن» لسيد قطب ، ط دار الشروق ، بيروت .

21 «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» للزمخشري ، ط بيروت .

22 «محاسن التأويل» لمحمد جمال الدين القاسمي ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

23 «المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

24 «معجم مفردات الراغب الأصفهاني» ، ط دار الكتب العلمية بيروت .

25 «مجلة المرابطون» العلمية منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية ، أنواكشوط .

26 «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي ، ط الدر العلمية ، بيروت .

27 «مناهج الجدل في القرآن الكريم» د. زاهر الألمعي ، ط الفرزدق بيروت .

صدر للمؤلف أحمد بن أحمد بن معمر شرشال الكتب والأبحاث الآتية :

1 مختصر التّبيين لهجاء التنزيل للإمام أبي داود سليمان بن نجاح (ت : 496 هـ) تحقيق ودراسة د/ أحمد بن أحمد شرشال ، طبعة مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوّرة ، ويقع في خمس مجلدات .

2 الطّراز في شرح ضبط الخرّاز للإمام أبي عبد اللّه محمد التنّسي (ت : 899 هـ) تحقيق ودراسة د/ أحمد بن أحمد شرشال طبعة مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوّرة ويقع في مجلد .

3 كتاب أصول الضبط وكيفيته على جهة الاختصار للإمام أبي داود سليمان بن نجاح (ت : 496 هـ) ، تحقيق ودراسة د/ أحمد بن أحمد شرشال ، ويقع في مجلد .

4 أصول التربية والتعليم كما رسمها القرآن الكريم بحث محكّم ، نشرته دار الحرمين للطباعة والنشر بالقاهرة ، ووزارة الأوقاف بدولة الكويت .

5 الوصل والوقف وأثرهما في بيان معاني التنزيل ، بحث محكّم ، نشرته دار الحرمين للطباعة والنشر بالقاهرة .

6 مخالفاتُ النّساخ ولجان المراجعة والتصحيح لمرسوم المصحف الإمام ، بحث محكّم ، نشرته دار الحرمين للطباعة والنشر بالقاهرة .

7 ردود القرآن الكريم على ذوي الجحود والإنكار ، بحث محكَّمٌ نشرته دار الحرمين للطباعة والنشر بالقاهرة .

والله أسأل حسن الختام آمين

8 والعمل جار بحول الله وقوّته – في بحث : الذّكرُ ومقاصدهُ في القرآن الكريم والله الموفق والهادي إلى سواء السّبيل .

◌ فهرس الموضوعات ◌

1- مقدمة 7

2- أسباب اختياري لهذا البحث 8

3- أهمية هذا الموضوع وصلته بالقرآن 12

4- بيان منهجي في هذا البحث 17

5- ردود القرآن على ما جاءوا به في حق الله 18

6- ردود القرآن على مزاعم كفار قريش
في حق الملائكة 32

7- ردود القرآن على منكري القضاء والقدر 39

8- رد ما قالوه في حق النبي ﷺ 45

9- شبهاتهم على بشرية النبي ﷺ والرد عليها 47

10- اقتراحاتهم أن يكون ملكا والرد عليها 49

11- رد اعتراضهم بأن منصب النبوة والرسالة
يتعارض مع الأكل والشرب والزواج 56

12- رد اتهاماتهم للنبي ﷺ بالجنون والسحر 61

13- رد اعتراضهم على نزول القرآن جملة واحدة 70

14- رد القرآن على اعتراضهم على أن النبي ﷺ
لم يكن من العظماء 72

15- رد القرآن على اقتراحهم أن يأتي
بقرآن غير هذا 74
16- ردود القرآن على تعللهم بالتخوف
إن آمنوا مع النبي ﷺ 76
17- ردود القرآن على طلبهم للآيات الحسية 78
18- ردود القرآن على زعمهم عدم كفاية
الأدلة على النبوة 83
19- ردود القرآن على المنكرين لليوم الآخر 88
20- بيان شبهاتهم 89
21- أجوبة القرآن وردوده على المنكرين والجاحدين 91
22- بيان حكمة الله عز وجل في مخلوقاته 98
23- التحدي للمنكرين والجاحدين 99
24- خاتمة البحث 101
25- ملخص البحث 105
26- فهرس المراجع والمصادر 109
27- فهرس الموضوعات 113